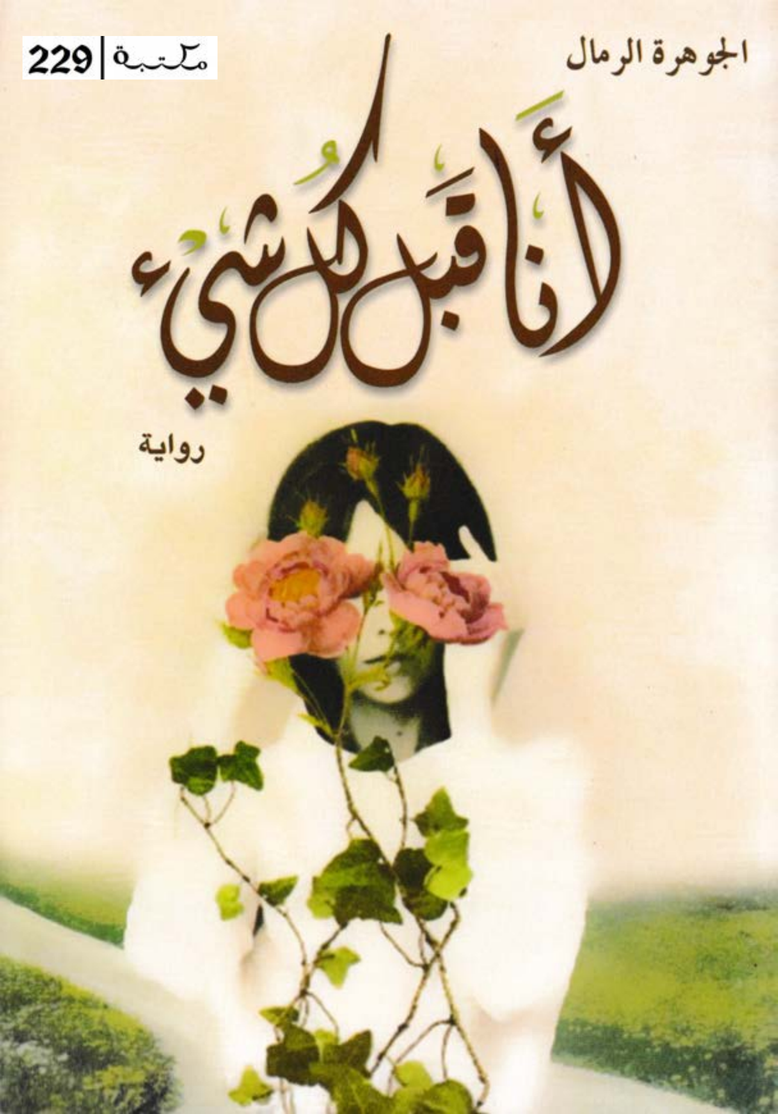

مكتبة | 229
الجوهرة الرمال
أنا قبل كل شيء
رواية


أنا قبل كل شيء
رواية

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الرمال، الجوهرة
أنا قبل كل شيء. / الجوهرة الرمال - ط ٤ - الدمام، ١٤٣٨هـ
.. ص؛ .. سم
ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٨٢١٣-١٩-٣

١ - القصص العربية - السعودية أ. العنوان
ديوي ٨١٣,٠٣٩٥٣١ ١٤٣٨/٣٨٧٤

رقم الإيداع: ١٤٣٨/٣٨٧٤
ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٨٢١٣-١٩-٣

ADAB BOOK
مركز الأدب العربي للنشر والتوزيع
الموقع الإلكتروني: www.daapd.com
دار الأدب العربي
@Services_Book
@Services_Book
دار الأدب العربي
adabarabic7
services_book@outlook.sa
مسؤول النشر: للتواصل
0597777444
المملكة العربية السعودية - الدمام

التجهيز الفني مركز خدمة المؤلفين
للتواصل:
مصر - الجيزة: 00201120102172



الجوهرة الرمال

@jo_alremal
@joalremal
jo_alremal

الطبعة الرابعة

١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م

الإهداء ..

إليَّ بعد عام ..

الحياة ليستْ قصة نرويها ونختار أبطالها، ونكتب لها نهاية سعيدة أو عادلة.

فلكل منا حياته الخاصة بفصولها واختلاف أقدارها.

كل ما يصيبنا هو درس يعلّمنا تعاملنا مع الأقدار على أنها حكمة إلهية؛ سوف تنجينا من الوقوع في هاوية النهاية السحيقة.

كل شيء يحدث لسبب ..وحدها هيَ الأسباب من تجعلنا ننمو بطريقة مختلفة، وفوق أيّة تربة وإن كانت غير صالحة للحياة.

نغرس أنفسنا كبتلات تضرب جذورها بالأرض وترجو المطر.

كن أنت أينما كنت!

ولا تقبل أن يجعلوا منك شخصاً آخر ..

اسمي (ورد) الاسم الذي اختارته أمي ورفضه أبي؛ ربما لأنه يذكره بحكاية ماضية يحتفظ بِها كبقعة داكنة في صدره.

لم ينادني باسمي قط، وعلى الأغلب سمّاني (عفيفة) نسبة لجدتي التي لم أعرف عنها سوى اسمها، ولم أظفر برؤيتها البتة ..

من هنا أبدأ من حكاية اختلف فيها اثنان، وتضمر لي اسمين وروحين وقصة أخرى نائية تسكنني .

نشأتُ في قرية صغيرة رائحة الطين تفوح من جدرانها.

تراب طرقاتها بين أظافري وضفيرتي.

أذكر بائع الحلوى الذي كان يمر بباب بيتنا، ويصدح عالياً وكأنه اعتلى مئذنة فبات ينشدُ شداهُ في أذني، ذلك الصوت الذي أهرع إليه بخطًا حثيثة ملبية، وأركض بقدمين صغيرتين متعثّرتين بكل شيء حتى برفض والدتي!

لم أكن الطفلة المدلّلة، كنت أنام محشورة ما بين تسعة إخوة وأربع وسائد.

أضع كفي تحت رأسي غالباً لأصحو وأجدني أتوسط الأرض الإسمنتية الصلبة!

وفي الصباح أنفض من وجهي ما علق به، وأبتسم ابتسامة بزوغ طفلة صغيرة تجبرها شمس الصباح على الاستيقاظ مع صوت الذباب لا الطيور.

تصحو معي معدتي الفارغة التي يبدو أزيزها مزعجًا؛ لأركض بحثًا عمّا يسد جوعها، ثمّ أحثّ خطاي باتجاه صوت أمي الغارقة في وسط زحام إخوتي، لا شيء واضح سوى بياض مفترق شعرها ولمعة جدائلها ..

أقف بعيداً أقضم أظافري

أتسلّق أكتاف إخوتي وأنظر هل تبقى لي شيء..!

وأنظر لتلك الأطباق البيضاء الصغيرة المدورة التي تتحرك بعشوائية في كل مرة يغترفون منها.

تلك التي تلتف وتتأرجح وعيناي ترقبانها، وصوتها يطمئنني أنها ما تزال ممتلئة ..

فأسعد حين يحين دوري بطابور غير منتظم، وغير مرتب.

ثم تلفُّ لي أمي لقمة كبيرة، وتحشوها بفمي الصغير ، فأبتسمُ

لابتسامة والدي المُتّكئ هناك، وكأس الشاي يناوبه بين أصابعه الكبيرة ..

كنت أعود لأزاحمَ من أجل لقمة أخرى؛ لكني وفي أحيانٍ كثيرة.. أكتفي بالقليل وأتظاهر بالرضا .

عمتي (زكية) تنادي علينا بصوت جهوري فضفاض.

تنظّم وقوفنا كطابور مدرسي نلتزم به الأدب ونحبس حتى النفس.

زكية.. عمتي التي فاتها قطار الزواج وأصبح اقتصاص تذكرة العبور فيه أمرًا عسيرًا جدّاً.

حين كبرت لتصبح غير صالحة للزواج والحب، سمينة بصدر متدلٍّ وبطن مستديرة. وأطراف قصيرة وعينين جاحظتين.

تبكي أحياناً ولا نعرف سبب بكائها، وهي التي تكرهنا جميعاً دون سبب يُعرَف.

كنت أعجبُ كيف يجتمع جبروت وحزن ..

بكاء وعنف ..!

لعمتي يد حديدية أكثر من مرة شعرتُ بوجع صفعتها؛ ولهذا أنا أخافها جدّاً ..

وأكره حينما تجرّدني من ملابسي وتقذفني تحت صنبور الماء، وتثبت عنقي حتى أنتهي من نوبة البكاء ومن الاستحمام ..

أعود غالباً وأنا أحمل شهقة كبيرة .. تلازمني ساعات ولا شيء يجعلني أهدأ، إلا حين تغزوني رغبة الرسم بألوانٍ ونصف كراس ..

أو حين تزورني صديقتي في الحي القديم ..

هيفاء.. التي كانت تسمح لي باللعب بعرائسها الخمس، والتي صنعتها لها والدتها بيديها دون أن تكترث لعبء تضميدها لتبدو لائقة لابنتها الصغيرة.

كنتُ أشعر أنها مدللـة، وكنت أنظر دوماً إلى ثوبيها الأحمر والأصفر.. أحببت الأصفر بخيوطه المتدلية الذهبية.

كانت تستطيع أن تلتف به لتصنع دائرة كبيرة، وأنا التي كنت أتمنى أن تعيرني إياه يومًا واحدًا لأرقص ولا أشعر إلا بنفسي ..

كنت أغبطها بحق على كل شيء، وخصوصًا أنّه لا عمة لديها، أو بالأصح لا وجود لكابوس زكية الذي أوشكتُ أخيرًا على الاعتياد عليه ومعايشته.

نسيتُ أن أخبركم أن عمري آنذاك سبع سنوات، ولا صديقة لي سوى هيفاء التي تشعرني بشيء من الاهتمام حينما تزورني وتسأل عني.

بعد أن أهملتني والدتي التي أنجبتْ ثلاث أخوات أخريات بعدي. وقضتْ معظم وقتها منشغلةً بهن.

في تلك الحقبة، تزوج والدي بحجة واهية مقتضاها رغبته في إنجاب ولد ذكر .

حينها شعرتُ أننا لعنة على أمي، وأن عمرها لا يثمّن إلا بذكر .. حتى أخي محمد المدلل بيننا، كان يشارك أمي البكاء.

وهي حالة عجيبة إِذْ إني قلّما أجد محمداً يبكي، فلم البكاء وكل أمر له يطاع؟ هذا حسب تصوري الضعيف في ذلك العمر الصغير!

اعتدنا نحن على هذه الحال ..ليستْ وحدها أمي من كانت تحب محمداً

أنا أيضاً أحبه .. ولم أخبره بهذا قطّ

تغيّر والدي كثيراً .. ما عاد ذاك الذي يشاركنا الغداء ويتفقّدُنا قبل النوم.

حتى صراخه مع عمتي زكية، لم يتواتر على مسمعي كما كان، ذلك الصراخ الذي كان كفيلاً بحفر خندقٍ في رأسي..

ببساطة انشغل كثيرًا وغاب طويلاً!

أيقنتُ بذلك جرّاء سهر أمي المتواصل والذي تقضيه انتظارًا له ثمّ يغبش عينها شبح النوم لتنام وهي تتكئ على حائط أملٍ ضعيف.

الكحل بعينيها صار يذوب سريعاً، ويترك بقعاً على وجنتيها البيضاوين المرتفعتين

كنت أقف مِرارًا عند باب المطبخ، وأسمعها تنشد أشعاراً وتتوقف لتتنهّد، ثمّ تعاود كرةَ الغناء بصوتٍ رخيمٍ متقطع

وحينها فقط...أدركتُ أنها تحب أبي حد العشق!

وأنها تفتقده كثيراً ..

وفي الليل أطل برأسي عليها حين تنام معنا، وخيال شعري المتناثر يتضخم على الجدار.

كانت تشعر بوجودي فتمثّل دور النائمة؛ لكنها نسيتْ كيف تعلّم أنفاسها أن تنام بهدوء دون شهيق متعب وزفير ممتد!

فأعود أنا الأخرى لأتظاهرَ بالنوم، وأدعو الله أن تغفو والدتي لنحلم معاً بأن تأخذني بحضنها أو أن آخذها لحضني .. كنت أرتجف كلما أحسست بهذا الشعور ..

حنان الأكبر مني سنّاً كان عمرها آنذاك عشرة أعوام .

كانت توليها أمي اهتماماً مختلفاً ولا تكلّفها عناء مهام التنظيف وتمشيط المنزل مثلنا.

وعندما تحتج أختي جواهر سليطة اللسان رغم قصر قامتها ونافذة بين أسنانها تتسع كلما تحدّثتْ، وحين أراها أضحك، فلطالما شعرتُ بالقرف من لعابها المتطاير وصبوتها العالي.

حينها ترد والدتي باقتضاب: حنان مسكينة ..

أحياناً لا أدركُ لِمَ تقول والدتي ذلك؟، رغم أني أشعر أنا أيضاً بالعطف على حنان؛ لصمتها الدائم وانطوائها الغريب.

كان لحنان ابتسامة تشعرني بالرضا والسكون دائماً.

علمتُ بعدها أنها تعاني من مرض (التوحد) ولكن هناك في القرية لا يوجد من يشخّص حالها أو على أدنى تقدير يعرف كيفية التعامل معه.

كنّا نكتفي بنظرة العطف

ومعاملتها كمجنون عاقل ..!

سنوات تخطّتْ من عمر أقدراي، سريعة ومتشابهة، أشعر أنها كذلك ..

كل شيء يبدو كما هو ..

إلى أن جاء ذاك اليوم الذي قصم عمري نصفين، كما هو الطوب القاسي حين ينصرم ويبدو أشتاتاً!

حينها شعرتُ بإعياء وبتعب شديدين وبخمول ثقيل يحاصرني، فأصرتْ والدتي على ذهابي إلى المدرسة دون اكتراث لحالي ..

كنت أبحث عن وسيلة إقناع بسيطة بحجم طفلة بريئة، وهي تظن أنها حيلة استمراض كاذبة كحيلة محمد الذي تصدقه أمي في كل مرة ..

أشعر بالبرد وأنتفض رغم أنّ الحرارة القياسية في الخارج تجاوزتِ الأربعين، وهو موسم جنْيِ الرطب وقطف الثمر من النخيل وقد تدلى بثمره اليانع.

وقد كانت تراودني فكرة اصطحاب لحافي إلى المدرسة لولا أن أختي الصغرى تشاركني إياه!

فتركته يعلو كتفيها الصغيرين، ومضيتُ أرتجف عارية الأكتاف إلا من جدائلي ومن هندام مهترئ ..

دخلتُ الصف بشفاه ترتجف أجر قدميّ بتثاقل،، كأنهما جزء ليس مني، شيء منفصل عني!

أتكور على المقعد الخشبي،

أحضنني بقوة، وأستنجد كل أنفاسي لتهبني الدفء، أضمّ يديّ على عينيّ الممتلئتين بالدمع، والملتهبتين بالحرارة

أتكئ على كفيّ الصغيرين؛ لأسند رأسي الكبير جدًّا ..

أتنفسُ بعمق، وأبتلعُ لعابي علني أزيح هذا الحجر الصلد الذي يقف بمنتصف حنجرتي

لا أشعر بشيء ..

سواد هذا العالم ..

من أطفأ النور وأصمت الحضور وجلب الهدوء لهذا الضجيج؟!!

أشعر بصمت في داخلي، صمت مطبق طويل أحاول أن أستفيق منه ..

أحاول عبثاً أن أخرج من هذه الدائرة الصامتة المرعبة ومن هذا الظلام الدامس،

ومن الأحلام التي تأبى أن تهبني شيئاً من الراحة!

أشعر فقط بأنفاس أمي تلك الأنفاس التي أحفظها جيداً

صوتها الذي ينادي متقطعاً، أسمعها وأشعر بها في كل الأحوال

أشعر بلعاب أختي جواهر يتطاير على جبيني وما لي حيلة لنفضه!

يداي ثقيلتان وأنفي تقف على رأسه بعوضة مشاغبة، أشتهي لو أهرشه حتى أقطعه لكن من يناولني يدي؟!

سمعت صوت أبي لأول مرة ينادي: ورد، كنت أود أن أخبره أني عفيفة، وأني اعتدتُ على هذا الاسم منه

فمن هي ورد يا أبي؟

هل هي أنا حقّاً؟!!

أم ابنة الجيران التي عشتُ معها قصة حب من خلف الجدران القصيرة، والمثقوبة الأسرار.

حتى انتهتْ قصة الحب سريعاً عندما خُطبتْ للتاجر الأسمر الذي يأتي بقطع الحرير للقرية، وساقها والدها كبهيمة ملفوفة بقطعة حرير له .

عرفتُ لَمَ لَمْ تشترِ الحرير يوماً لأمي!

أسمع صوت أمي الذي يهمس برفق وغضب

كيف لهذا وذاك أن يجتمعا بحنجرة امرأة ..؟

تعاتبك على هجرانك

وتلومها على التقصير

كان بودّي أن أفتح عيني لأخبرك أنّ أمي تحبك كثيرًا، وأنها ستنجب لك ولداً في العام المقبِل

كان بودّي أن أصرخ كفى .. أو أن أغيّر مكاني .

أريد فقط أن أخرج من هذه الدائرة السوداء وهذا الصداع الذي يشلّ جُلّ حواسي .

لماذا هم بجانبي الآن؟

بجانبي؟!

أين أنا الآن؟!

يفترض أنني في حصة اللغة العربية مع المعلمة حسناء التي توبخني دائماً إذ أني لم أميز بعد أن المبتدأ في بداية الجملة والخبر يليه ليتمم معنى الجملة،

فتبدو الجملة مُفيدة ومُخبِرة.

حسبتُ أن قواعد اللغة ستتغير يوماً ليكون الخبر مبتدأ هذا عندما ننصتُ للخبر دون أن يعني لنا المبتدأ شيئاً .

وررررد

وبصوت عالٍ جدّاً

إنها زكية عمتي زكية

وقت الغداء ..

يعني طبقاً لا تشتهيه ولا تختاره!

الطعام المسلوق والأرز الأبيض المطبوخ ليسهل دفعه بأفواهنا ..

كانتْ تعاملنا عمتي زكية وكأننا كائنات عليها أن تقضي واجبها اتجاهنا ، وتمضي دون أي إدراك لإنسانيتنا، لطفولتنا، لأرواحنا التي ما تزال تملي عليها كل خيبات عمرها، وتحاول الانتحار على طريقها..

كانت تطعمنا كالبط الذي تضعه بين مفترق أرجلها وتحشو ما تبقى من الطبق بفيهِ

كان لزامًا عليّ أن أبتلعه كله وإن كنت شبعى ..

كنت أنظر إلى جميلة أختي التي تصغرني بعام، وكيف كانت شفتاها الصغيرتان تفتحان ويتم تكديس الطعام بداخلها كبضاعة يُخشَى كسادها.

وهي تضحك بعفوية بشعرها الأجعد المنثور، وعيناها تنظران إلى السقف على الدوام تهرب من البكاء ومن الشكوى،

وساقاها البيضاوان الطويلتان، تمتدان فوق ثوبها الأخضر المزركش بورود حمراء.

الثوب الذي كان وحده مبتهجاً وسط نوبة خوفنا المتزامن!

كانت تُشير لي من بعيد

وكأننا صحبة الموت والجنون!

عاد الصمت مجدداً هذه المرة

صمت موجع وفراغ واسع .. فراغ يمتد ليلتهمَ كل الحكايا والذكريات

لا شيء سوى سحب بيضاء فوق رأسي ..

أفتح عينيّ بصعوبة.

وأردد في ذاتي: من أطفأ النور؟

أتحسس مكاني

لست على مقعد المدرسة ..

أنا هنا في منزلنا وبوسادة كاملة تحت رأسي

وغطاء لي وحدي

وملامح إخوتي متكدسة فوقي، هكذا شعرتُ من ترداد أنفاسهم دون أن أرى ملامحهم ..

سألتهم أن يضيئوا الغرفة!

لم أكمل جملتي بعد

ليصرخوا دفعةً واحدة:

أمي .. ورد .. ورد .. أفاقتْ ..أفاقتْ

تهزني أمي بكِلتا يديها وتناديني

كنت أجيبها من داخلي:

- نعم أمي

- أنا بخير

لكن لا تسمعني!

كانت تصرخ وكنتُ أصرخ

تنادي: ورد تعرفينني

أجيبها: نعم أعرفك أمي

لكنها تصرخ من جديد!

لأن صوتي يهتز بداخلي فقط، وما سمعته أمي كان صوتاً بلا حروف

كان لساني ثقيلاً وكأنه مربوط طرفه بعجلة ضخمة أجرها بعنف

تلوح بكفيها أمام وجهي

أشتم رائحة الحناء وأشعر بحركة كفيها

تمنيت لو تتبعتها!

هناك أمي..

تجلس تمد ساقيها وتضرب رأسها وتولول

يشاركها كل من حولها إلا حنان لم أسمع صوتها ولا زكية

ربما لأنهما شريكتا الخيبة والصمت!

فزكية المعهود لها بالصراخ والضجيج

لطمتْ فاها واسترسلتْ بصمتٍ مديد!

أفتح عينيّ وكأني سأخرجهما من مكانهما

أبحث عن نور يتدلى لأرى أمي وأكف عن هذا الشعور وأنا أرسم

صور الجميع بخيالي ..

عرفت بعد طول بكاء وزحمة الضجيج والأصوات المكتظة حولي ولوم والدتي الذي أسقطته دفعة واحدة على أبي .

أني تعرضت لحرارة شديدة ودخلت حالة إغماء حاولت معلمتي إسعافي بسيارة العم كمال.. حارس المدرسة وتعرضنا لحادث قبل أن نصل إلى المستشفى

بُتِرتْ أصابع السائق جراء ذاك الحادث، أما أنا فأصبت بضربة قوية في الرأس فقدت إثرها شيئاً مني، بينما معلمتي حسناء فقدها أهلها!

الفقد الذي يجعلك تغيب عن أنظارهم؛ هو الفقد المؤقت الذي يجلب الحزن والبكاء ويُذِيبُ وجهك بعد العزاء ..

أما الفقد الحقيقي فهو أن تبقى صورة عالقة على جدران الحياة ببرواز يهرم ويهترئ دون أن تُدرك عمره.

وأن تكون لوحة يومئ الناس إليها ليتحدثوا بصمت عنها .. بالشفقة وبالبؤس.

الفقد الذي يجعلهم ينسون سريعاً ويعتادون واقع إعاقتك ويشعرون بالملل منها، دون أن يعيشوها معك .

فقدت حبيبتيّ ..

عينيّ .. نافذتي للحياة ..

أصبحت كما يقولون (كفيفة) ..

لا أعرف ماذا يعني العمى بعد ..

أهو نوبة مرض وتمضي بطريقها، وهي موعودة بالشفاء؟!

ما هو العمى يا أمي؟

هل هو كحبّكِ لوالدي وبكائك لغيابه، وهو يتوسد حضن امرأة أخرى؟!

هل هو تخليه عنا من أجل ذكر، دون أن يشفع وجودنا بشيء؟!

ما هو العمى؟

سؤال يحدق بوجوهكم

أتركه لكم ..!

اسمي عفيفة الكفيفة

عمري ثماني عشرة سنة

عمر الظلام ثمانية أعوام ..

كل الجدران تعرفني

أتحسسها، أعرف كم ثقب مسمار أوجعها وانغرس في خاصرتها.

أحاول أن أعثر على ظلي، وأبكي حين أجد الظل يسكنني .

أصبحتُ المشهد المألوف لأطفال الحي.

المهرج الذي لا يكف عن إضحاكِهم واللعب معهم والجري دونِ توقف.

الدمية التي لا يؤذيها رمي حجارتهم ولا تكترث لتعاطفهم .

الشخص الذي يضحك وهو يبكي.

ويلتف حول نفسه ولا يسقط، أو هو الذي يقاوم سقوطه بالانحناء!

كل شيء يبدو بلون واحد .. حتى حائط المدرسة الذي كان ممتلئاً بالعبارات أصبحتُ أراه بلون واحد.

لا أعرف كيف يتحول العالم إلى الرمادية نهارًا والسواد فجرًا

كيف تسرَّب النور مني؟!

ومن جعل أطرافي بلهاء تبحث عن دليل؟!

أعيدوا ترتيبي!!

أعيدوني لنفسي

أحتاج إلى صوتي

أحتاج عينيّ

أضيئوا مصابيحكم .. أبصروني من جديد ..!

الأعمى ليس من فقد بصره . .
كم من مبصر حسبه الناس أعمى !
العمى الحقيقي حين تَعمى البصيرة لا البصر . .

عندما مرضت كانت ما تزال عيناي مبصرتين سليمتين لولا الحمى.

رُكنت بزاوية غرفة مزدحمة بوجوه إخوتي، صوت بكاء أختي (كفاية) الرضيعة يرن بمسمعي، ويداها الصغيرتان تلوحان للهواء كنت أودّ أن أقتربَ منها؛ لكن الحمى تثقل رأسي.

أحب رائحتها جدّاً فهي أشبه برائحة زهر لم يشتمه أحد قبلك، ألم أخبركم أنّ أمي أسمتها (كفاية) .. لتعلن كفايتها من البنات.

ولعل الله يرزقها بمولود ذكر لتحظى بوالدي من جديد، بعد أن فر إلى سرير آخر وأحلام أخرى!

دخلت أمي الغرفة وأنا الآن أركل الغطاء من فوقي، أجعله يتكوم عند أرجلي وأتكور حول نفسي متظاهرةً بالبرد.

لا .. في الواقع كنتُ أشعر به لكن ما كنت أتخلى عن الغطاء إلا لأجعل أمي تقترب مني

أرفع صوتي بالآه علها تضع يدها على جبيني .. لم أكن أرجو أكثر من هذا، ولم أذكر متى آخر مرة فعلتها، بعد تلك الرحلة التي تكدسنا بها كرؤوس فطر تنبت وسط حقل أخضر!

عندما أخذنا والدي في رحلة للبحر .. استعار سيارة جارنا أبي فهد.

وهو الوحيد الذي يملك سيارة واسعة تتسع لأجسادنا المركونة بها.

كان لونها أحمر، وكنت أراها قطعة فنية جميلة أنوارها الأمامية مدورة تبرق بلمعة ساحرة، وكم كنت أود أن أمرر أصابعي عليها لولا خوفي من أخي محمد!

حشرت نفسي لأجلس بمحاذاة النافذة، ألصق بها وجهي متأملةً كل شيء، ولا شيء غير طريق صحراوي ممتد .

السماء كانت معي ترافقني أو كنت أظن هذا، ومن السحاب نسجتُ قصة، وتخيلتُ كما لو أني أميرة، وألبس فستان هيفاء الأصفر ذا الخيوط الذهبية المتدلية؛ لأرقص على أطراف أصابعي وألتفّ حول نفسي وأغني .

أحرر جدائلي التي كانت أمي توبخني كلما فعلت هذا، أحب لون شعري المسدل بحرية على أكتافي الصغيرة.

كنت أحلم كثيراً في صحوي، وفي حلمي هذه المرة لذيذ بحضرة السحاب.

صحوت من حلمي على صوت إخوتي الذين باتوا يتدافعون من فوق رأسي للنزول، لم أشعر بوجع رأسي، فلقد كان الحماس أكبر من أن أفكر بأي ألم أو بأيّ ضجر، وفي الواقع لا أحد سيكترثُ لشكواي!

لقد وصلنا إلى الشاطئ . مشيتُ ببطء نحو البحر، كان شعور عظيم ينتابني لحظتها، طفلة صغيرة وثرية بالأحلام تحمل الدهشة والفرح والصراخ والصمت.

كيف لقلبي أن يحتمل كل هذه المشاعر المتناقضة؟!

حملت حذائي على صدري لأني أخاف ضياعه، ولن أجد ما يقي قدميّ حين أذهب إلى المدرسة في يوم الغد.

رمال الشاطئ باردة رطبة.

تحضن أقدامي وكأنها تدعوني للعب بها .

لعبتُ .. لعبتُ .. ضحكتُ عالياً حتى إني لا أذكر يوماً ضحكتُ فيه بمثل هذه الطريقة!

كنت أبني مع فهد قصرًا من الطين،

بنيتُ له غرفة نوم كبيرة وهو بنى غرفة تتسع لكل شيء.

كنت أود أن أقول له: أن يبني لي غرفة لي وحدي لأهرب من شخير عمتي زكية، كنتُ أتأمل فهداً كثيراً، وأشعر بسعادة لأنسى أحياناً ما أود قوله له، بل وأتلعثم وأخجل منه.

(فهد) هو ابن جارنا الذي ألحَّ أخي محمد أن يأتي معنا يكبرني بعدة أعوام فقط.

كان يملك يديْن كبيرتين وبشرة حنطية وشعراً أجعد وأنفاً دقيقاً وشفتين عريضتين، وله أذنان صغيرتان مدفونتان بشعره.

كنت أراه جذاباً ربما لأنه يبني قصر الطين بطريقة جميلة

وربما صمته وهدوء تبسمه وصوته الذي يضيق بحنجرته وكأنه ابتلع شيئاً وبقي عالقًا يعطي صوته نبرة أجمل ..

ربما يخيّل لك الصوت غريباً ..لكن كان مميزًا أقلها بالنسبة لي!

كان هادئًا لا تفلتُ أعصابه حينما يهدم أخي محمد قصرنا بأقدامه.

كان يقول لي:

سنبني غيره وحسب، وكنت أومئ برأسي، وأروحُ مسرعةً لأمي وباكية؛ لأشكو لها ما فعله محمد بقصرنا.

كان شعري يغطيه الرمل وحواف فمي وأيضاً رمش عينيَّ.

كانت تنفض العالق من الرمل في شعري وتمسح وجهي بيدها ..

هنا فقط مسحت بكامل كفيها على وجهي

والآن أنا ممددة وأنتظر كفيها لتمسح جبيني .

أنا لا أتصنع!

أنا مريضة بالفعل يا أمي .

أنا بالفعل أحبك!

من يخبر كفيّ أمي بهذا ..؟!

تأخذ أختي كفاية، وتخرج من الغرفة كنت أنظر إلى قدميها بعينيّ اللتين ستنغلقان في أية لحظة.

للمرة الأولى أعرف أن أقدام أمي كبيرة، أو ربما لأني كنت ألصق وجهي بالأرض بعد أن خارت قواي .

أسمع صوت أختي جواهر تلح بمطالبها كالعادة تدخل الغرفة وهي تمضغ علكاً أكبر من حجم فمها

ولطالما كرهت رائحة النعناع فهو يحفزني على التقيؤ.

تنظر إليّ وتضع يدها على خاصرتها وتهز بطريقة مربكة وساخرة لتقول:

- شفيك أنت قومي ما شبعتي نوم ..

أومئ لها برأسي ب لا

ثم أبكي بدمع حار

تفاصيل عينيها ما زلت أحفظها جيداً

تقترب مني حنان لتتأمل وجهي وكأنها تعرف أني متعبة

لتركض مسرعة تنادي أمي

مر وقت طويل على ذهاب حنان دون عودة!

أظن أن جواهر جعلتها تحرس لها مدخل الدرج الجانبي

لتلتقي مع سعيد من سور السطح القصير

فهي تمضي نصف يومها عالقة هناك ..

لم أعد أنتظر حنان ولا أمي ولا أوقات جواهر الشحيحة؛ كنت أنتظر الصباح الذي غاب منذ سنوات.

أنتظر النور الذي سينتشلني من هذا السواد المُعتِم.

كنت أبكي كثيراً ولا أشعر بهذا .

أقف على النافذة، أطرق زجاجها وأتوسل الشمس أن تشرق .

أتحسس الجدران في كلّ صبح لأبحث عن كابل النور!

تركت الدراسة .. فلا مكان للكفيفة بينهن!

كنتُ أسأل نفسي ما الفرق بيني وبين حنان، طالما والدتي أصبحت تشاطرني العطف ذاته

وعمتي ما عادت مسؤولة عني كما كانت .

أشعر بالارتياح كونها بعيدة عني .

أصبحتُ أستدل على وجودها من رائحتها ..

رائحة ريحانة كانت دائماً تقطفها من زاوية خضراء صغيرة بحوشنا الإسمنتي، وتدسها في صدرها الكبير

تتنفسها بعمق كشهيق لا يحتمل الزفير

كانت تصلي وتتحدث كثيرًا، وتتمتم بحديث سريّ لا يعرفه أحد ولأني فقدت بصري صار السمع عندي يبصر أحياناً.

كانت أصابعها المتفخة السمراء ترتفع تارة وتمسح دمعها المتهدّل من عينيها تارة.

تقبض على الريحانة وتعود للحديث من جديد.

كنت أشعر بوجع مزمن وبخيبة كبيرة يطوقانها أبطالها والدي والزمن!

كنتُ أكتم على هذا الأمر لأني أخافها

فزكية لا تنحني أبداً!

في تلك الليلة وبعد الانتهاء من صلاتها نامت قريبة مني.

كنت أستشعر قربها رغم أنّ المسافة ما بين وسائدنا خمس خطوات بحساب الأصابع

كانت تحسبها جيدًا

فقبل النوم، أعيد في كل ليلة هذه الحسبة .. وهي التي تكره اقترابنا أو أنْ يجمعنا ضيق المكان عنوة.

تنهدتْ بعمق، وشعرتُ بأنفاسها

سألتها: عمة

- نامي ..

هي تقول

قلت: من هو عيسى؟

أطبقتْ بصمت دون إجابة.

سحبتُ أنفاسي لأعيد السؤال.

سمعتُ صوت بكاء مخنوق بوسادة

ابتلعتُ سؤالي وتظاهرت بالنوم ..

أحتاج أنا أيضاً أنْ أدفن وجهي بالوسادة يا عمتي؛ لننمْ جميعاً وليشهد الله على ما في صدورنا .

صوت صراخ جواهر يعلو .

إنها ساعة المخاض .. جواهر ستلد الآن .. الجميع يركض إلا أنا عصاي أتوكأ بها أمامي وأهش على هذا الغبش المستقر في عينيّ.

الجميع يصطدم بكتفي ويمضي دون أن يجيبني، ما حال جواهر؟

جلستُ مكاني وصوت جواهر يعلو.

تذكرت همسها من فوق السور مع سعيد، حديثها الذي يمتد لساعات وضحكاتها، تذكرتُ كم مرة أعادتْ وضع الحناء بيديها بعناية فائقة.ورسمها المحترف للكحل ومضغها العلك بطريقة غنج لتصنع جمالاً لثغرها العريض.

لم تكن جميلة لكن سعيد أوهمها بذلك!

ألبسها ثوب الحب الذي كان يرفل عليها.

الرجال يكذبون كثيراً بالحب وفي أول لقاء حقيقي يجبنون وينصرفون بحمق وبقلة مروءة.

لم تحسن حنان دور الحارسة

حيث سمع والدي صوت ضحكاتها واتجه مسرعاً بخطوات خفيفة ليجدها تتكئ على السور القصير وسعيد بالسور المواجه لها

صوت صراخها ووالدي يضربها يشبه صوت صراخها الآن!

صوت يتهدّل بخوف وضياع

صوت يجهل مصيره وإلى أين سينتهي ويجف .

أرغم والدي سعيد على الزواج من جواهر

لم يكن يحبها؛ فلا يوجد رجل يحب امرأة تدلّت له بمفاتنها .. قبل أن يمسها ..

تزوجها سعيد أربع ليال واختفى، وترك ورقة معلقة على برواز صورة والده المتوفى وكتب فيها:

لقد خذلتك،

أنا راحل فسامحيني لترضى عني أمي ..

رحل سعيد حيث المجهول لكن ترك بأحشاء جواهر شيئاً يتكور شيئاً فشيئًا و ينبض ويكبر.

روحاً خلقت منه، تواجه مصيراً مفتوحاً وقدراً مجهولاً يرتجف ..

انطفأ صراخ جواهر ليبدأ صراخ آخر

صراخ شهي ويجلب البكاء!

كنتُ الوحيدة السعيدة، حتى إني قفزت ونسيت صغيرتي العصا

أسمع بكاء أمي، وشتائم عمتي زكية وكلمات نساء الحي ...

بنت .. بنت .. فوق همّك همّ

تبسمت لأنها بنت

أقتربُ من جواهر أتحسسها لأصلَ إلى كفـيّها، أمسك بأصابعها أفردها واحدة تلو الأخرى، أعد أسماءنا واحدًا واحدًا؛ لأصل للأصبع التاسع وأفرد العاشر وأصمت، إنها ابنتك يا جواهر، سمِّيها ..

تلفظ نفسًا عميقًا وبهدوء لتقول (أمنية) ..

شعرت أن شيئاً بداخلي قد تحرّك بولادة أمنية .. لأن أختي كانت تتمنى عودة سعيد، وأنا أتمنى أن أبصر من جديد، وأمي تتمنى عودة والدي

أمنية أصبحت تلك الشماعة التي علقنا عليها أماني ثقيلة جدّاً

كنت أخاف أن تهوي باتجاه الأرض لا باتجاه السماء ..

الحياة عبارة عَنْ أمنية ضخمة، نسقيها كلّ يوم ابتهالات كثيفة، حتى إذا ما اهتزت وربتْ، عاودنا سقياها من جديد، فلا هي تحققتْ، ولا نحن كللنا وسئمنا .

وبعض الأمنيات حين تأتي متأخرة، تأتي جافة جداً، حتى من الفرح ومن الحياة ! !

ابتسام الرشيد

صوت مذياع عمتي وأغنية فيروز

نسّم علينا الهوا من مفرق الوادي

يؤذن أنّ الصباح قد جاء، كان هو المنبه الذي يخبرني بوقت الصباح والشمس.

صوت فيروز كان يغني في كل صباح لعمتي زكية، كان يتكرر بنفس الجمال ليبقى.

و فجأة.. قفزتْ فكرة لذهني ..

ماذا لو أنني استعرت هذا الجهاز الصغير؛ لأسجلَ به رسائل إلي بعد عام؟!

قبل أن يبتلع القدر صوتي كما ابتلعَ بصري وأشياء كثيرة

أحسست للحظة أني سأتحدث لنفسي أخيراً ..وبصوتي

كيف لي أن أستعيرَ شيئاً من عمتي زكية؟

هي لا تحب أحدًا وتمضي جلّ يومها مشغولة بلا شيء، تخلق من فراغها شغلاً لتنشغل عن ذاكرتها التي تجعلها تضعف وتبكي.

كان لِزاماً عليَّ أن أعقد صفقة معها، وبما أَنِّي لا أملك شيئاً ..قررتُ أن تكون صديقتي، فنحن نتشابه كثيراً بالوحدة، سوى أن خيباتها تفوقني عمراً!

«الفرص لا تأتي مصادفة، نحن من نخلق الفرص لأنفسنا» . .

ماي ويست

عمة ..ناديتها

لا جواب

رغم أني أسمع صوت أساور يديها وصوت الماء والأطباق ..

اعتادت أن تغسل الأطباق حتى النظيفة منها؛ لتنشغل عنا ..

عمة .. كررتها ثلاثاً ورفعت صوتي عالياً

أعرف أنك هنا .. وعيسى ما يزال هنا أيضاً أشعر أنه يقف بجانبك محاذياً لأنفاسك.

هنا فقط سمعتُ صوت خطواتها تركض باتجاهي مسرعة، تثبت يديها المبتلّتين على أكتافي وتنفضهما بقوة.

لتقول:

- أوووش يالعميا!!

لم أستغرب من هذا فكانت دوماً تناديني بذلك، وتنعتني بِهذا النعت، أجمع نفسي وأعاود الحديث

- منذ متى رِحل عنك؟

يعلو صوتها ..

- أووووش

تضع كفّها على فمي لتجعلني أبتلعُ صوتي، أكفها حارة عريضة ترتجف، وتجرني من يدي .. أصبحت هي عصاي هذه المرة، كانت

تركض وكنت أبصر، أعرف أنها ستتعثّر الآن بطرف السجادة المنطوية منذ أعوام؛ حتى تعثرت ووقفت من جديد، وواصلت بسحبي إلى الغرفة كنت سأطير في أيٍّ لحظة تترك يدي؛ لهذا كنت أمسك بها جيداً..

تغلق الباب لتقف خلفه وكأنها تريد أن تمنع صوتي أن يتسرب خارجاً لتسألني وهي مطبقة أسنانها:

- كيف عرفتِ بعيسى ..؟

- أنت ..

أرد عليها

تعيد سؤالها نفسه بصوت أكثر عمقاً:

- أنااااا؟!

تقول هي

- أجيبها: نعم عمة

تعيد لي الجواب بسرعة لتقول: عمى يعميك

أبتسم:

- أنا عمياء بالفعل يا عمة، وأنت أيضاً ..

تترك الباب أخيراً و تهرول باتجاهي وصوت أنفاسها الثقيل يطرق سمعي وأشعر به.

أقف وأنا مستعدة لأيّة كارثة ستحصل

لأي إعصار يمكن أن يتلقفني وربما أدفن بين إحدى الوسائد هنا.

كانت كلماتها سريعة وكأنها تداري شيئاً كبيراً.

أخبرتها أنها تردد اسمه بمنامها كثيراً وتستفيق على البكاء.

أخبرتها عن تلك الليالي التي أدس فيها رأسي تحت الوسادة أتظاهر بالنوم وأرى أصابعها التي تفرقعها وتعتصرها وتبكي.

أخبرتها عن ذلك الريحان الذي تدسه لتشتم الحكايات القديمة .

أنا أعرف يا عمة الكثير!

صمت وتنهيدات متتالية عرفتُ أنها ما تزال تتنفس وأنها بقربي .

من هو عيسى يا عمة زكية؟

- ابن الحي القديم .

تجيب هي

- هل أحببتِه؟

أسألها

تصمت وربما كانت تومئ برأسها ولكن لا أراها ..

أصمت وتصمت

لتبدأ الحكاية من الريحان .... الذي كان يعلقه لها عند باب منزلها

كل صباح وقبل أن تذهب إلى المدرسة.

كان يرقب خطوتها ويبتسم، وهي تستحثّ خطاها خشية من أن يراها والدي ..

- أنا أخافه وأكرهه ..

تقول عمتي عن والدي

- وأين عيسى الآن؟

لا جواب أظن أنها تهز أكتافها بـ: لا أدري

أشعر وأتخيل دائمًا الإجابة هكذا علمني العمى ..

- تكمل ..

وأصمت

خشية أن تصمت مجددًا

عمتي زكية بخيلة الكلام وكتومٌ وكأنها تعيش بصندوق إسمنتي..!

الحديث الذي يخرج عن نطاق الروح هو نوبة بكاء على هيئة حكاية مُعلقة.. !

عيسى رجل جيد .. هذا ما كان يشهد له الحي بأكمله .. خدوم وله لسان معسول يحبه الجميع.

صبور وبار بوالده الذي يعمل معه بمحل الحدادة مساءً.

ويذهب إلى الجامعة صباحاً حيث كان يحلم أن يكون مهندساً ووالده أيضاً.

أمه العجوز جارتنا وبما أنها وحيدة إلا من عيسى، كنت أذهب إليها لأقوم بمساعدتها، وهناك كانت تزرع بعض الشجيرات بأحواض متفرقة بباحة منزلها .

وكنت كلما أنهيتُ عملي استأذنتها بقطف ريحانة؛ لأني أعرف جيدًا أنّ هذه الشجرة عيسى من زرعها، وهو الذي يعتني بها.

كنت أشتمّ رائحة كفيه بالطين والماء، وتضم كفيها لوجهها وتبكي هذا ما أوحى لي صوت بكائها المختنق

طال الصمت المطبق!

كان كل شيء بالغرفة يتحدث،

الستارة التي تهتز كلما لامسها الهواء،

صوت كرسي الخشب المهترئ الذي تجلس عليه عمتي الآن وتهزه بطريقة مربكة، صوت أظافرها التي تقضمها وتبزق عليها وتبكي .

تكمل ..

- عندما كنت بعمرك .. تعني ١٩ عاماً، تقدم عيسى لخطبتي، كنت أود أن أخبر كل جدران الحي لترقص معي وكل أبوابها لتفتح لعيسى وتستقبله، وكل الطيور كذلك لتصطف على غصن واحد وتستعد للغناء ..

كنت مرتبكة جدّاً ..يتيمة الأبوين لا أحد لي سوى أخي صالح والدك يا ورد .

أطل بنصف رأسي أنتظر خروجهم، طال حديثهم وعلت أصواتهم فتح الباب وخرج عيسى مسرعاً نحو الشارع ويتبعه والده الذي بدوره التفتَ إلي وأنا أقف بعيدة عنه أضم يديّ وكأني أقبض على الحظ وأدعو ألا يفلت مني

قال بصوت ثقيل:

- ما في نصيب يا بنتي وربي يستر عليك.

كنت أود أن أركض نحوه أمسك بعباءته الرمادية لأسأله لم؟

لأخبره أني خلقت لعيسى، وأن كل أحلامي تنتظره معي

أنظر إلى صغار الأمنيات من يطعمها ..؟

أنظر كم ريحانة حملتْ لي من روحه سلاماً؟

كم من قصيدة حفظتها لأغني له ..؟

كم وكم

ليقطع حديثي صالح:

- بنت ارجعي، ما يصلح لك .

بنفس دمعي المرتجف ألتفتُ له لأسأله .

صوتي المرتجف كان متقطعاً، وصوته كان حادًّا جدًّا ..

- عيسى عبد

- عبد؟!

ماذَا تعني؟

أها ربما يقصد لون بشرته وملامحه التي ورثها عن أمه .. أمه التي كانت تعمل لدى عائلة والده، فأحبها والده وتزوجها وهاجر بها إلى هنا؛ ليولد عيسى بملامحها وبدم عربي، بمجتمع تحكمه القبيلة واللون قبل الدين والنسب .

رغم أنه ولد بينهم، وتربى بمجالسهم وتعلم بمدارسهم؛ إلا أن لون بشرته كان بمثابة اللعنة التي قصمت عمره وعمري

أقسمت يميناً لروحي أني سأكون له وإن طويتُ عمري شيباً، وإن اشتاق كتفي لطفل يناغي عليه

أقسمت ألا أحب أحداً ..

أنا لا أحب صالح ولا أطفاله الذين يتكاثرون في كل عام .. وبكل عام أنجب خيبة أخرى.

أنا لا أحبكم ..

كنت دائماً أرى أنكم أجزاء متفرقة منه .. تنادي عليّ تركض حولي!

وجهه يتضخم بكل الاتجاهات يا ورد .. أنا لا أحبكم!!

تكتم صرختها بالوسادة حتى ظننت أنها تنوي ابتلاعها ..

تقدمتُ لها زاحفة على ركبتي أرفع يدي أحاول أن أستدل عليها

صوت الكرسي الذي هدأ ما عاد يدلني كنت فاتحة أذرعي لكل

شيء ولا أريد سواها.

وصلت لها أتحسس وجودها ضممتها إلى صدري بأكتافها الكبيرة

مسحتُ على ظهرها، وللمرة الأولى أكتشف أنّ عمتي لها جديلة

طويلة نحيلة تخفيها تحت ملابسها لأعوام

أخبرتها همساً:

أنا صديقتك يا عمتي الآن، اقبليني أو اشطريني نصفين.

نصف يبقى عالقاً معك رغماً عنك، والنصف الآخر لا يهم أين

يكون بكل الأحوال، أنا متعبة جدّاً فهاتي كتفك لأغفو

وهاك كتفي لتبكي طويلاً

بكاء أخير .. لتطهر عيناك ..

ألم أخبرك أني أشتاق لرؤيتك الآن!!

«كل شيء له عجائب حتى الظلام والصمت، وأنا أتعلم، أنه مهما كانت الحالة التي أكن بها أكن قانعة»

هيلين كلير

إلى بعد عام ..

الرسالة الأولى

مرحباً يا أنا ..

كيف حالك الآن؟

لا تنسي هذه اللحظة أبداً، لحظة صداقتي بعمتي

الصفقة التي جعلتني أترك لك أول رسائلي عبر مسجلها الصغير .

أتمنى أن تكوني بخير، وأنك تصالحتِ أخيراً مع الظلام.

الظلام الذي كاد يجعلك تتعفنين بإحدى الزوايا

وتقضمين أصابعك، وتبكين حين تضيع عصاك.

الظلام الذي يجعلك تخافين أن تتعثري بظلك، وتُقبلين كل الجدران بحثاً عن نفسك .

أظن أنك أفضل بكثير الآن

سأظل أكتب لك رسائل كثيرة

هل قلت أكتب؟!

يا لحماقتي ..

لا بأس

عادةً الرسائل الأولى تحمل الكثير من الأحلام ..

الرسالة الثانية . .

إليَّ بعد عام ..

هل ما يزال مصيرك مجهولاً؟

لا أعرف .. لكنني أخجل أن أتكلم عنه؛ لأنه سري الأعظم الذي أخفيته بصدري منذ طفولتي.

هل تذكرين قصر الطين والكفين السمراوين العريضين .. والغرف التي حلمتِ بها ..؟

هل تذكرين صمتي وتأملي؟

لقد كبر منذ ذاك الوقت

كبر جدّاً وصار أطول مني.

كنت أقف على أطراف أصابعي لأخطف نظراته الشاردة وهو يلعب مع أخي محمد، وحتى بعد ما تغير صوته وشبّ، حين تضخم فجأة وبدأ الشعر يتناثر بذقنه بطريقة عشوائية.

وأقفلت عينيّ بعدها على تلك الصورة

الصورة التي ما تزال معلقة على جدران روحي تطرق نوافذ الذكرى كالمطر.

هذا عندما أسمع صوته ..

هل جربت ذاك الشعور؟

أعني النافذة وصوت المطر.

هرولتك باتجاه الحياة، تفتح النافذة بعجل ولا تستطيع الخروج

لأن المساحة ضيقة جدّاً على جسدك ..

فقط أنفكَ وأطرافك والحواس، لتلتقط كل شيء وترجو من الله خيراً

لم يشِبْ فهد بداخلي وحلمي كان يولد في كل مرة.

ما كنت أخافه هو عمر الظلام الممتد حيث المجهول، كيف لمن يبصر أن يتزوج عمياء؟!

ربما الحب يفعل هذا!

لكن إن كان من طرف واحد .. كحالي معه.

فهو حب أعرج سيسقط يوماً أو تبتر ساقه!

الرسالة الثالثة . .

أحتاج أن أسجل صوت أمنية

الطفلة التي تملؤنا بالصراخ والحياة.

الصراخ الذي يجعلنا نستفيق على واقعٍ بعيد، واقع لا نخشاه وإن بدا مجهولاً.

عمر أمنية الآن عامان، ربما ستكمل العامين قريباً، أشعر أنها تشبه جواهر كثيراً.

أتحسس ملامحها وأدعو الله ألاّ تنفرج أسنانها كوالدتها

- أبتسم الآن!

أحتاج أن أصمت وأخلد لنفسي .

ماذا لو أبصرتُ وكانت لا تحمل الصورة التي بداخلي

هل سأحبها؟

لا بأس أحتاج أن أخبرك أنَّ لها أنفاً مدوراً صغيراً بمناخر مرتفعة وأعين كبيرة منحدرة جوانبها

لها شعر متطاير دائماً.

يداها صغيرتان،، آه كم أتمنى أن أمضغها أحياناً.

الأطفال وحدهم من يجعلونك تخرج من معزلك لتستنشق الحياة وتحبها .

الرسالة الرابعة . .

إليكَ يا وجهي بعد عام

هل ما زلت تحتفظ بملامحك قبل أن أغمض عينيّ

قبل أن تتحول مرآتي إلى السواد

حين أصبحتُ كأحد تلك الجدران التي أتحسسها فقط

لتخبرني أين أنا .

هل ما تزال عيناي تشبهان عينيّ جدتي عفيفة؟

لوزيتين مسحوبتين من الأطراف

برمش طويل يمتد بظلاله على وجنتي المرتفعتين اللتين تشبهان

وجنتي أمي ..

لا تزال أمي تحتفظ بهذه الوجنة حين أقبلها لولا أنها أصبحت لينةً

أكثر من ذي قبل، بكل الأحوال تتغير الملامح من عيد إلى آخر وهو

وقت تقبيل وجنتي أمي .

كم تبقى على العيد ..؟!

أذكر أن هناك مفترقاً لا ينتصف شعري

حين كنت أرى جانبي تمرد على المفترق الذي تصنعه أمي دائماً بمنتصف رأسي

كنت أشعر أنّ رأسي سينشطر بأيّة لحظة ليترك مسافة بيضاء واسعة دون دم ..

كنت أقف خلف الباب حيث المرآة المصلوبة على ظهره

قطعة لا تفي لتظهر كافة تفاصيلك فقط لتخبرك أنك هنا مع شخص يشبهك.

كنت حين أخلق مفترقاً آخر برأسي أشعر أني أكبر .. أكبر بالقدر الذي سيجعلني جميلة بما يكفي بعيني فهد .

يا الله ها أنا أعود من جديد .. لأتحدث عنه

توقفت الأخبار منذ سفره، ولا يصل منه سوى رسائل ورقية تحتفظ بها والدته كسرٍّ عظيم

تكتفي بقول: إنه بخير.

أتنفس أنه بخير وأخبر عينيّ، لا حاجة لي بكما الآن، لعل الله يهب لكما النور

يوم عودته؛ لتجدي نفسك بصورة أكمل وأبهج

هذا ما كنت أحدث به نفسي بعد كل مرة أسمع بها صوت زغاريد النسوة المختلط بصوت الرصاص

ما بين الرعب والصراخ هناك يولد فرح وبطريقتهم الخاصة ..!

إليك ..

حقيبتي ودفاتري وأقلامي، ألواني التي تنتظر من يسن رؤوسها.

صديقاتي اللاتي تركتهن على مقاعد الدراسة ولم أحظَ بهن من جديد.

كيف لي أن أعود إلى كلّ هذا؟

وكيف أجمعني من جديد؟

اعتدت الظلام وتعلمت كيف أشتمّ رائحة كل شيء.

أبحث عن مخرج من تلك الأنبوبة الطويلة التي وضعني بها أهلي عنوة

أنا قادرة على اجتياز كل هذا!

من يمد لي يدي.

إني أفتقدني!

عندما حجب الله نور عينيّ كنت طفلة وقبل أن تزهر روحي.

أقف حافية عند باب بيتنا أنظر إلى كلّ شيء وكأني أحفظ وجوه المارة أنظر إلى أقدامهم، إلى شفاههم حين تتحدث ولضحكهم ولضجرهم كنت أنظر إلى كلّ تفاصيلهم إلا ما عدا أعينهم .

فقدت حبيبتيّ ومازلتُ أقف ولم يتغير شيء، كنت أسمع كل ما أود أن أشاهده ..

ما كان يهشمني إلا ضحكات صبية الحي المنطلقة.

وما كان شيء يلملم بعثرة روحي إلا حلوى العم أبي فهد .

الصغير لا ينسى، وبعض التصرفات تظل عالقة بجدران روحه كبرتُ وما عادت حلواه تجدي بعد أن صمتَ الصبية.

وما عادت العتبات تسمح لي أن أقف عليها.

كبرتُ دون أن أدرك معنى هذا بعد، كبرت كثيرًا يا أنا؛ حتى حذائي صار يوجعني حين أنتعله فأبكي، كنت أحتاج أن أبكي على أية حال .

تصالحت مع الظلام، أحببتُ لعبة (الغميمة) لكن كنت وحدي من يبقى لآخر اللعبة ولا يجد إلا نفسه!

فقدت نظري وتفتّحتْ عندي حواس أخرى، كل حواسي تضاعفت قدرتها وهذا ما لم أخبر به أحداً.

كنت أشتمّ خطواتهم من بعيد وأعرف كل شيء من نبرات صوتهم كانت رائحة الكذب تخنقني ووحدي من يشتمها .

جاء هذا الصباح مبكراً

الصباح الذي ننتظره جميعاً

إلا أختي حنان، أخبرتنا أمي أن حنان ستتزوج

يفترض أن نفرح كثيراً.

لكن كل وجوهنا كانت تسكنها قصة صغيرة تبدأ بكيف؟ وتنتهي بتعجب!

حنان مريضة توحد، المرض الذي يحتاج إلى رعاية خاصة في ظهور أول بوادره، فكيف بحنان الطفلة التي ولدت بكومة قش، وتحتها عود ثقاب سيشتعل بأية لحظة...؟

جميعنا كان يعاني غياب والدي، وتكدُّس المشكلات الصغيرة التي تضخمت لتصبح معاناة طويلة.

الفقر الذي كان يحوم حول قريتنا، وبعدُها عن المدينة والخدمات.. كل هذا أجبر حنان على أن تنشأ وتحمل مرضها ليكبر معها أكثر انطواء .. أكثر ريبة .. كلمات بصوت ثقيل .. الوحيدة التي كانت تجعل أمي تضم يديها للدعاء وتبكي.

حنان فتاة جميلة طويلة بيضاء وذكية، من يشاهدها لأول وهلة لا يدرك ما تعانيه،،

هي دقائق ويكتشف

في الواقع، المريض التوحدي جميع من حوله يعانون إذا كانوا ينظرون إلى مرضه كمعاناة .. إلا هو ..

لقد قرر والدي صالح أن يزوجها من جارنا أبي فهد والذي يقارب والدي بالعمر، لا أعرف هل هي شفقة من أبي فهد أو صفقة خاسرة من والدي .

كان ينظر إليها بعين حزن ويخاف عليها؛ ربما وجد أن وجودها ببيت أبي فهد هو الشيء الوحيد الذي يجعله مطمئناً إذا غيبه الموت..

لم تلبس حنان ثوبًا أبيض، هذا ما أخبرتني به عمتي زكية، فقط عباءة سوداء لتنقلها من بيت والدها إلى بيت زوجها.

لم أسمع صوت زغاريد هذه المرة ولا صوت الرصاص، كنت أسمع بكاء أمي وأتحسس رائحة الدمع.

كانت الدعوات تسوقها ويدي ممسكة بيدها، كنت أخاف أن تفلت مني فكفّا حنان الوحيدان اللذان ظلاّ ممسكين بي بعد أن فقدت بصري.

كانت تمسك بيدي بقوة، وكأنها ستأخذني معها كما اعتادت أن تصحبني من غرفة إلى غرفة ..

من المطبخ إلى السطح ..

من عتبة الدرج الذي نجلس عليه إلى فراشي الذي يوازي فراشها .

في الواقع أنا من كنت أمسك بها، أود أن تكون طفلةً دائماً

حنان .. لا تكبري فجأة .. دون أن تدركي هذا!

لا تشبهيني هنا..

لنكبر معاً ..

أو لنمتْ ومعنا طفلة لا تنوي الكبر ..!

رحلت حنان، ويداي تتبعانها، وددتُ لو أزاحمهم وأتخلل تلك الرؤوس لأبصرها، والعم أبو فهد يضع يده على كتفها

كنت أشعر بهذا رغم فقد بصري، أشعر بثقل يده وكأنها استلقتْ على كتفي .

يا الله كيف تؤكل أحلامنا كوجبة شهية ..دون بسملة ولا حمْد!

كيف نجعل من صغار أرواحنا عرائس ليلة لا تنتهي؟

كيف أعلمهم

أنّ حنان لا تحتاج لزوج لتكون بخير؟

هي تحتاج لكم ولنفسها قبل كل شيء!

رحلت حنان، وأنا التي أنتظر عودتها بفارغ الصبر، أنتظر عكازي وأنيسي، أنتظرها كفجر قريب سيأتي،، فجر لا يطيق ظلام الليل المُكفهِرّ.

ستعودين يا أختي، بعد أن ينتهي من التهام وجبته ويتخم بالرضا سينام بعيدًا بينما ستبكين أنتِ كثيراً

ستضربينه كما كنتِ تفعلين مع أخي محمد كلما حاول ممازحتك؟!

اليوم هو الثالث عشر من رمضان

كنت أحسب للعيد وكأنه سيأتي ببشارة معه ..

لا أعرف لَمَ كنت أنتظره!

وبداخلي ثقل عجيب وكأني أود أن أنتزعَ حجارة من فوق رأسي وأرمي بها بعيداً.

مع كل أذان مغرب كنت أستمع دعوات أمي تبتدئ بمحمد وأن يرزقه الله بزوجة صالحة لا تنتزعه منها، ثم تنخرط الدعوات الباقية.

كنت أنصتُ إليها جيداً لعلها خبأت لي دعوة غير كوني عمياء وكل مرادها أن أبصر!

حسبت أن هناك دعوات مطوية بين لهفات الرجاء ربما هي ما أنتظره ولم أعرف عنه بعد.

يمضي رمضان كغيره من الأشهر، لولا رائحة المأكولات وسهر النسوة بعد صلاة التراويح؛ ليقضمن بعضهن بعضاً.

رمضان كان مختلفاً بالنسبة لي فلقد كانت تنشغل عمتي زكية عن مسجلها الصغير وأظل أنا أرسل رسائل لي.

كنت أتكلم مع نفسي كثيراً ولوقت متأخر .

وأحياناً أضحك وأبكي ولا أشعر بأحد، إلا بصوت محمد حين

يخبرنا أنّ فهداً هنا ويطلب منا الدخول ليمر فهد.

أشعر بخطواته جيدًا، وكأنه ذاك الصبي الذي لم يكبر بعد.

أستشعر رجليه العريضتين وأصبعه المصاب بعد حادثة طفولية عندما اختبأنا بعيداً عن جواهر ومحمد وأطفال العم محمد وإبراهيم الحلّاق

لم نجد مكانًا مناسبًا إلا خلف أكوام من المخلفات لنضحك عالياً وننجح في أن نختبئ ولا يجدنا أحد، لولا نزف أصبع محمد الذي جعلني طبيبة أضمّد الجرح النازف، ويثق هو بما أفعل.

لم أنجح كعادتي؛ ولكن هذا الأصبع كنت أراقب شفاءه إلى أن كفّ بصري، وخجلت أن أسأل أحدهم كيف هو جرح فهد.

أظن أنه بخير الآن وربما نسي الألم ونسي طبيبته الفاشلة ..

من يخبر العالم أني أرى حين أحِب.

أرى كيف تتحرك شفاههم كيف هي ضحكاتهم كيف تتلون وجوههم عندما يكذبون.

أرى كل شيء حتى خطوط ملامحهم حين يكبرون ويتغيرون.

من يخبرهم أنّ أصواتهم لها رائحة مختلفة!

في كل مرة أشم فيها كل أكاذيبهم قبل عواطفهم.

كبرتُ واعتدتُ على الظلام وتصالحت مع كل الجدران.

وعرفت الآن أين هي أشيائي، وأين مشطي وحذائي.

أين قميصي الأخضر، وأين هو الأصفر وأين البني القاني

كبرتُ وعرفتُ هذا عندما أتحسس جسدي.

امتدت ساقاي بعيداً دون أن أعرف أين وصلتا.

وكذلك أصابعي أيضاً وجدائلي.

وهامة رأسي أظن ما تزال تحتفظ بمفترق أبيض اختارته أمي لي

كل شيء أتحسسه وأدركه ولا أراه ..

إلا فهد ووجه أمي

كنت أراهما كآخر مرة أغمضت فيها عينيّ.

كنت أتحسس وجه أمي وحين تبكي كلما فعلتُ هذا.

توقفتُ منذ زمن ولا أعرف كم خطّاً من التجاعيد لاح في وجهها الجليل.

فهد .. ابقَ كما أنت!

الظلام وحده من رسم لي ملامحك ..

قلتُ مرة:

في الحياة

نولد مرة واحدة

ونموت كثيراً

فعرفت أن بكل موت نحيا من جديد

نعود لنرمّمَ بقايانا ونركض باتجاه الحياة.

وعرفت أيضاً أن في كلّ مرة أموت بها، أشهد ولادتي من جديد، بكل وجعها وبكل التوسلات لله وحده أن يخلصني ..

لا أقول لك جرب الموت

ولكن جرب ألاّ تموت من أجل شيء فشل أن يحيا بك ..!

التاسع والعشرون من رمضان

قبيل المغرب وعند تمتمة الدعاء، الهمس كان عالياً هذه المرة وجواهر كعادتها الأعلى صوتاً.

كنت أشعر بتحريك شفاههم ولم أميز غير اسم فهد يلاك بين أفواههم

صوت أمنية يعلو ليحجبَ عني ما أود التقاطه

أسأل جواهر ما الخبر ..؟

لتجيب: فهد

أنصت أنا.

تكمل هي

- بعد بكره زواجه من هيفاء .. ما تعرفيها بنت إبراهيم الحلاق؟

أصمت أنا.

تكمل هي:

- أخيراً تزوج خل يفك عن محمد يمكن يتزوج وراه .

- أصمت أنا

تثرثر هي

- الله يرحم زمنك يا هيفاء ما كانت تحبه .. تذكرين يوم كنا نقول لها أنت عروسة فهد وتجلس تبكي وأنت تبكين..؟!

هي

- تضحك بصوت عالٍ

أبكي أنا ...

أمشي وكأني عمياء للمرة الأولى.

لا أعرف أين غرفتي وأين هي الجدران التي لطالما كانت دليلي

كنت أمشي وكأن قدميّ مربوطتان بسلاسل ثقيلة أجرّهما معي وأنا متعبة

أقف وأجرّهما مرة أخرى.

كنت أبتلعُ غصاتي وكأنها قارورة ماء أفرغت مرة واحدة بفمي.

لم أصل إلى غرفتي .. وجدت نفسي أرتقي عتبات بيتنا ... أهرب إلى السطح، لأعلى مكان كانت تهرب له حنان

كنت أحتاج الهواء، أحتاج أن أصرخ مع أذان المغرب ولا يسمعني أحد، أصرخ بقول: ... يا الله!

قبل أن أصل وقبل الصرخة وقبل أن ألقي الآه من صدري ..الآه التي كادت تقتلني

انزلقت رجلي عندما نسيت آخر عتبة

نسيت أن أعدها كما نسيتُ سنوات عمري وكم مضى منها في انتظار فهد!

تكورت لأسقط متدحرجة

كنت أشعر بقوة سقُوطي

بوجع أضلعي

بالتواء كاحلي باصطدام فك وجهي بالعتبات

وأنا أعود إلى الدرجة الأولى مقلوبة على رأسي ..

بشعر منكوش وجديلة منفرطة وجسد متكور متفككة أجزاؤه ..

صوت أذان المغرب:

الله أكبر

وبداخلي أبكي يا الله

- الله أكبر

وأنا يا الله

ودمعة تسقط لتشق الغبار على وجهي وترسم خطّاً من ماء ودم ..

هدوء .. هدوء

وكأنما مرتْ ساعة وأكثر

ماء بارد على وجهي

وأستنشق عطر أمي كريماً على أنفي

العطر الذي كنت أسترق منه رذاذاً لأبدو أجمل

جواهر تحاول أن توقظني

وعمتي زكية ترفع رأسي لتجعلني أتوسد حضنها

الحضن الذي ظل شاغراً لهذه الأعوام دون أن تسمح لواحدة منا أن تتوسده قط

سمحتْ لي هذه المرة بكل ما أوتيت من عاطفة

عرفت أنني مررت بحالة إغماء أفسدت عليهم آخر يوم من رمضان
وفوتتْ عليهم لذة الإفطار بعد جوع مضنٍ وحار ...
عرفتُ أني أرعبتهم دون أن يدركوا السبب و ما الذي جعلني أتيه
عن عدد عتبات بيتنا العشر
وكيف نسيت العاشرة لأسقط من التاسعة كعمر سنوات ظلامي
التسع ..

مسحات كفَّيْ أمي تارة على وجهي وجواهر تارة أخرى، وانتفاضة
حضن عمتي زكية تحت رأسي وبطريقة مربكة
شعرتُ وكأنهن يغسلن شيئاً عالقاً بعيني
كنت أرى لوناً آخر غير الظلام
نقطة ضوء متدلية من الأعلى
كان بودي أن أطلب منهن أن يكففن عن تكرار المسح وعمتي عن
انتفاضتها
حتى أتتبع هذا الزائر الغريب إلى عينيّ ..

أغمضتُ عينيّ وأخذنني محمولة على الأكتاف، وأقدامي تخط بخطوات عرجاء، وكاحل ملتوٍ وخيبة ثقيلة..ثقيلة جدًّا.
أجترّ روحي إلى فراشي لأغفو، لأتنفس ببطء

أصوات خطواتهن ما عادت كما كانت... أقصد بوضوحها ووقعها بأذني
وحتى رائحة المكان ورائحة أصواتهن ولمسات أكفهن
كل شيء بات عادياً ليس بالقوة التي كنت أستشعرها سابقاً ..

كان الصداع مسيطراً على رأسي وأضلعي تؤلمني فظننتها السبب.
وما زلت مغلقة عيني حتى لا يفلت هذا الزائر
حتى أنصت له وأتبعه ..
نسيت خبر فهد وزواجه وأصبح الوجع سيد جروحي ..

استلقيت أخيراً
فتحت عينيّ وكأني أبحث عمّا انفلت مني ..ذاك المعلق بين ملامحهن.
فتحتهما بهدوء ..برمش يحاول أن يغفو وأنا أقاوم هذه الإغفاءة
بقطرات ماء عالقة أشعرتني بوزنها هذه المرة

فتحت عينيّ وإذا باللون الرمادي

غير السواد ..هناك ضيف آخر

أغمضت مرة أخرى ..وكأني خفت أنني فقدت شيئاً غير ما فقدت

كبؤبؤ أو ربما طار الجفن ..

الصدمة تفعل هذا أحياناً!

عاودت فتحهما، وأنا أتمتم: يا الله هب لي جنود رحمتك

مرة واحدة ودفعة واحدة فتحت عينيّ

لأجد نوراً معلقاً فوق ألوان هنا وهناك

وكأنه حلم لم يزرني منذ زمن

فنسيت الألوان ولونها والنور وماهيته

أغمضت عينيّ رهبة وخوفاً!

جمعت كفيّ على وجهي لأستفيق سريعاً من هذا الحلم

أفرج أصابعي وأعاود فتح عينيّ

لأجد هذه الألوان حولي جميعها تبشرني بعودة البصر لي!

وجدت النور معلّقاً لولا هالة الضباب التي تحيط به!

وجدت منضدة أمي بألوانها بمكانها في زاوية غرفتنا

وجدت مسجل عمتي زكية بجانبي، وكأنه يهنئني بالعودة وبصوت فيروز وصوتي

وجدت لحافي فوق المنضدة وآخر كان فوقي.

أحتاج أن أصرخ هب لي يا الله صوتي من جديد

صوتٌ يجعلني أصرخ لآخر مدى

لأقصى حدود الحمد

صوتي ينتفض يا الله!

وكفّاي ترتعشان

كنت أخاف أن أعرك عينيّ، أخاف أن أعود عمياء

أخاف أن أصحو من حلم اليقظة هذا

لأعود إلى الظلام ..!

أعلن التلفاز أن غداً هو أول يوم بشوال

أنه يوم العيد

كنت أسمع الزغاريد والتصفيق بالخارج

أسمع صراخ صبية الحي وصوت المفرقعات النارية

أسمع صوت جواهر وهي تغني لأمنية بفرح

من أصواتهم صنعت عيداً لنفسي

وتخيلتُ كما لو أنهم يحتفلون الآن بي.

كنت أبتسم ولا أغمض عينيّ أنظر إلى كل شيء حولي

أضحك بصوت متقطع..

أضحك بدمع يفور بعيني

أضحك ملء روحي وملء الحمد

قفزت لأخبر أمي والجميع

لأخبرهم أن هذه البشارة التي كنت أستشعر أن الله سيهبني إياها

على هيئة وجع لذيذ.

لا أشعر بكل الآلام التي سببها لي تدحرجي من عتبات الدرج

ولا رأسي الذي انقلب وتكوّر.

للمرة الأولى أمشي وأقدامي تطير

لا أتحسس الجدران ولا أمشِّط الأرض لأستدل طريقي

أتعثر برؤوس إخوتي الصغار النائمين في الغرفة بجانبي.

كيف نسيت هذا!

وصلت إلى الباب

وإذا بالمرآة

القطعة الصغيرة ما تزال عالقة هناك.

رفعت رأسي وأنا ألملم شفتيّ سعادة

ويدي تتسارع لتهذيب شعري

كنت أود أن أراني من جديد.

اقتربت..

نصف وجه،،

أقتربُ بهدوء

ثم وجه كامل

دهشت..

رجعت للوراء

وضعت كفيّ على وجهي

من هذه؟

من أنتِ؟

لم تكن تلك الطفلة التي تركتها منذ تسعة أعوام!

عيناي فقط هما من تشبهان أنفسهما لأنهما عينا جدتي عفيفة
لولا أنهما أكبر حجماً وبرمش طويل
هذه الندبات التي تركت حفراً بوجهي!
من أين لي هذا؟

تذكرت تلك الليالي التي أقضيها لا تحسسها ولا أهدأ إلا عندما
أشعر برطوبة الدم على يدي
لم أكن أعرف أني أشوه نفسي ولم يخبرني بذلك أحد ..

أنفي أكبر الآن منتفخاً

وشفتاي النحيلتان كما هما

وكأنهما تحفظان مكانهما جيداً ولم تتغيرا

أكتافي أكبر

وبمنطقة الصدر صرت أشبه أمي

صرت أنثى دفعة واحدة ..

خجلتُ كيف تضخمتُ هكذا دون أن أشعر؟

لم أكن جميلة كما ظننت ..!

وشعري به مفترق اختارته لي أمي ولم أخترْه

عرفت أنني لم أكن عمياء وحسب .. بل قبيحة ..

أول دمعة تسقط من عيني و أراها هي الآن ..

دمعة سقطت متعرجة ما بين الندبات والحفر

لتستقرّ على حدود شفتيّ لأبتلع ابتسامتي

قررتُ أن أكون عمياء؛ لأعود لوجهي الذي حفظته

ووجوههم التي أعرفها

قررت ألاّ أخبر أحداً بعودة نظري

لأرى ما خلف ذاكرتي الضيقة

أرى الظلام الذي لم يكشفوه لي

والندبات التي يخفونها عليّ كمثل ندبات وجهي

أرى الأشياء البعيدة والتي تخفيها حركاتهم دون علمي ..

لم أعد تمثالاً خشبيّاً

أنا أُبصر الآن ..

«إنني لأخشى إن انجابت عنا هذه الظلمة، وغمرنا الضوء أن يكره كل واحد منا النظر في وجه صاحبه آمناً» . .

طه حسين

صوت الباب يطرق بقوة ..

ومقبض يهتز

للمرة الأولى يجتمع الصوت والصورة

أفتحه ..

وأعلق عينيّ بالسقف هذه عمتي زكية

بصوت حاد

- ليه تقفلي الباب يا بنت

لم تترك لي مجالاً للإجابة

كانت مسرعة تفتش بزاوية الغرفة وسط أكياس متكومة

نظرت إليها

كما هي عمتي زكية

هذه أكتافها العريضة الممتلئة بالدهن

وقامتها القصيرة وشعرها الذي تجمعه وتربطه للخلف لولا أنه

أخف بكثير من السابق

تبسمتُ وكنت أتوق لأرى وجهها

وجه صديقتي التي منحتني مسجلها الصغير

خرجت مسرعة

دون أن تلتفت لي وهي تقول:

- بكره عيد يلا تعالي ما فيك شيء ..

أبتسم

يا الله هذه هي لم تتغير .. وجهها العريض وشامتها على أنفها

وبعض التجاعيد عند حدود عينيها ..

قبل أن تغلق الباب أسترق النظر للممر الخارجي

وأرى طفلة تلعب هناك

إنها أمنية..

ثوب قصير وساقان منتفختان شهيتان

الله كم تمنيت أن أرى هذه الصغيرة وأبتلعها إلى داخلي دون مضغ.

رغم لهفتي لاحتضانها إلا أن وجع جسدي والصداع كان أقوى

غفوت سريعاً.

ربما هي الهدنة التي تسبق العودة إلى العالم الذي تركته منذ سنوات

نمت دون أحلام دون أصوات

وصحوت على صوت تكبير

إنها تكبيرات يوم العيد

ورائحة القهوة تنتشر في البيت

وصوت أمي

أمي التي أود أن أقفز لأراها

بساق عرجاء أتمايل

أتخطى رؤوس إخوتي المتلحفة والنائمة

لا أعرفهم

الصغيرات كبرن لولا أني أحفظ أماكن نومهن

هذه كفاية وهذه عريب هذه أماني وهذا ....

يا الله هذا مكان حنان

ستعود يوماً.. أقولها بنفسي وأبتسم

وصلت إلى الباب فتحته على مهل وصوت زجرته يفضحني

أختلس النظر

هل قلت النظر؟!

نعم شعور جميل أن أشعر بهذا من جديد،، أن يكون لي مدى يتجاوز عكازي ويديّ وأذنيّ وأنفي.

كنت أود أن أنظر إلى وجه أمي

ها هي هناك..

تقف ولا أرى إلا ظهرها، قامتها الممشوقة كما هي

لا تزال تحضّر وجبة الإفطار

كنت أود أن أصرخ يا أمي هاتي وجهك

عينيك أنفك جبينك وكلك ..

هاتان يداها المخضبتان بالحناء التي دائماً أشتمها

وأستدل عليها منهما

ما تزال مشغولة

تلتفت نصف التفاتة ..

وأنا الحماس يكاد يفتك بي فرحاً

لتنظر إلى أخي محمد الذي أتى ليُقبّل رأسها

يا الله يا محمد من أين لك هذا الشعر المنتفض في وجهك، لقد تغيرت كثيراً وأصبحت أطول الآن

وتلتفتُ أمي أخيراً كملاك يهبني العيد دفعة واحدة

لقد تغيرتْ ..

أيحق لي أن أخجل!

ماذا فعلت بها السنوات وأبي ومرضي وجواهر وحنان؟

يا الله

كيف لا أخجل من نفسي مع كل خط مرتسم بوجهها واتساع رقعة الهم على ملامحها

وذبول العافية بعينيها

لكنها هنا ..

ما تزال هنا ومعنا وهذا يكفي ليجعلني أبتسم ولتحظى عيناي برؤيتها من جديد ..

ينظر محمد باتجاه الغرفة ينظر إلى عينيّ مباشرة

ليقول بصوت عالٍ:

- زال شرُّكِ يا ورد كل عام وأنت بخير كيف حالك بعد حادثة أمس؟

كان بودي أن أستمر بالنظر إليه لولا استدراكي أني ما أزال عمياء

وقلت: بخير يا محمد بخير.

حادثة أمس ..!

لا أود أن أتذكرك الآن ..

أنا أتعرف على نفسي ..

واليوم هو عيدي قبل العالم أجمع

أنا لا أشعر بغصة

أنا أحتاج أن أبكي فقط ..

لتلك المسافات التي تفصلني عنك

للأحلام التي أنتظرها على عتبة النعاس

للأمنيات الطويلة التي تنتهي بعينيك

لا شيء قادر على أن ينتشلك مني

سأمسك بيدك ..

لا تتركني للريح ..!

صباح العيد وملابس جديدة

الجميع اختار ملابسه إلا أنا، فاختارتها عمتي زكية وكما كانت تفعل منذ صغرنا.

وجدتُ أنّ ثوب عيدي يكبرني بخمسين عاماً

مزدحم بالألوان فضفاض وكأني سأقلع به

لم أحزن لهذا بل سعدتُ أني أراه ويظن الجميع غير هذا ..

في يوم العيد كنت أستقبل الوجوه ولا أعرفها إلا بعد أن يتحدثوا

يا الله كم تغيرت هذه الوجوه .. وبقيت أصواتهم عالقة بحناجرهم كما هي.

كم تضخمت أجسادهم وكم نحل بعضها

وماذا فعلت بهم السنوات

تسع سنوات كفيلة لتحولك إلى شخص آخر

ولكنْ كلٌّ منا يختار ماذا يريد أن يكون ..!

كانت كذبتهم واحدة

إش هذا الزين يا ورد

أبتسم لأنهم يكذبون من أجلي ..الكذب الذي جعلني أبتلع فرحتي وأعيشها وحدي

سألت جارتنا العجوز ..

- كيف يبدو ثوبي يا جدة

قالت:

- جميل جميل .. أصفر كلون الشمس في الصباح

وبه ورد يشبهك يا ورد .. تحسسي ملمسه

وتمسك بيدي وتضعها على ثوبي

لتقول: ناعم ويصف جمالك أكثر ..

الحرير للبنات الجميلات فقط ..

يا الله حتى الجدة تكذب

وعيناي تصدقانها هذه المرة

أحتاج أن أصدق عينيّ، أحتاج أن أعود إلى نفسي قبل أن يكملوا رسم لوحاتهم داخل رأسي.

ظهر يوم العيد ..الجميع يترنح وكأنه يحتاج لعام كامل من النوم ..
كنت أنظر إلى حنان وهي تعبث بعباءتها وتلفها على معصمها ثم تفكها..

وأسأل قلبي كيف هي؟

ويجيبني: ليست بخير

كنت أحتاج للنوم لولا فرحتي بالنور الذي عاد، صرت أخاف أن أنام وأصحو عمياء من جديد ...

كنت أبقى مستيقظة لأطول وقت .. أفتش بكل الثقوب كنملة تبحث عن قطعة سكر بشغف ..

النوم زائر يأخذني عنوة ويرمي بي إلى عالم الأحلام

العالم الذي صرت أخافه .. أخاف الحلم الذي يتبعه سوء تأويل كحلمي بفهد ..

فهد

الحلم الأطول عمراً وغداً أستيقظ منه على واقع ليس لي

أغفو الآن ..

بعد يوم طويل واستقبال وقهوة ورائحة المباخر ما يزال عطرها عالقاً بثيابي ..

قبل أن أنام أحتاج أن أترك رسالة

أنظر إلى مسجّل عمتي زكية بجانبي وللشريط بداخله

وأفكر هل يحق لي أن أستخدمه بعد ما أبصرت؟ هل أنا أسرق وأنقض العهد مع عمتي؟ ..

أحسست أن التسجيل ليس من حقي الآن

وليس من حقي العودة للكتابة أيضاً وفي هذا الوقت ..

أخذته ووضعته بحضني للمرة الأولى لأستدلَّ على أزرار التسجيل دون أن أتحسس ظهرها ..

بصوت ثقيل أبدأ لأقول:

إلي بعد عام ..

لقد أبصرتُ يا أنا

كنت أثق بأن هناك باباً يشرّع في السماء لدعواتي

وأن كل هذا الرجاء الممتلئ بالعجز سيصل ..

أمطرني الله سقيا الفرح ليغسل عينيَّ وأبصر

وإن كانت العودة بوجع .. لكني عدت ..

ودون أن أخبر أحداً

كل شيء كان اليوم هو كذبة ..

حتى بلون ثيابي يكذبون

وعلى متن مشاعري وعلى عينيّ يرتعون ..

يقصون حكاياتهم ويرسمون

ووحدها أذني من يصدقها ..

وعيناي تكذّبان كل هذا ..

موجع أن تكون تمثالاً .. وعيناك تبصران ..!

بعد نوم عميق .. أشرقتْ شمس هذا اليوم

اليوم الذي يعدك بتحقيق كل الأحلام .. ويأتي بغيرها وكأنه يرسم لك الموقف ذاته والقدر يغير الوجوه ..

الأصوات في الخارج وكأن العمالة ببيتنا ..

خرجت لأجد الأنوار عُلّقت على منزل أبي فهد

خيوط النور التي تتدلى من الأعلى إلى الأسفل لتعلن الفرح

وصوت الخِراف التي تساق للذبح ..

ورائحة الوسائد والسجاد تتكدس على رأس أنفي .. كتكدسها أمام بيت أبي فهد ..

اشتعلت روحي .. بل وصلت إلى مرحلة الغليان التي تجعلك تبتلع كل هذه المشاهد وتخاف البكاء ..

تخاف أن تفضح حديث نفسك لسنوات وتكشف عورة حلمك ..

أعود إلى غرفتي ..

أقفل الباب

ها هو وجهي يلوح لي من جديد معلقاً على المرآة ..

أعاود النظر بعمق أكثر

أتحسس الندبات وصغار الحفر

لشفتي النحيلتين وصفرة أسناني

وانتفاخ وجنتي وتكدس الدهن على حدود وجهي ..

يا الله هل تعاقبني بعمتي زكية!

لتصب شيئاً منها بوجهي؟!

أريد أن أبدل عينيْ جدتي هاتين فوحدهما اللتان أعرفهما

أريد أن أحتفظ بهما في صندوقي الذي أعرف مكانه ولا أعرف ما الذي خبأت به وهل يستحق فعلاً الذكرى ..!

في صندوقي وجدت رسائل هيفاء صديقة الحي القديم .. وعروسة الصوف الوحيدة التي سرقتها منها، ودعوت الله أن يغفر لي هذا .. فقط لأني جائعة للعرائس والحلوى ..

فتحت عينيّ مرة أخرى لأفتش عني ..

وأردد:

قبيحة أنت يا ورد

عرفت لِمَ لَمّ يفكر فيك فهد

ليس كونك عمياء

هو نسي وجهك وطفولتنا ..

وجهي؟!

آه عرفت الآن

ذاك اليوم الذي كنت أنتظر فيه أمنية تعود من بيت جدتها

أقف خلف الباب .. وبمجرد سماعي للخطوات ظننتها عمتي زكية بصحبة أمنية عائدة .. لأن زكية هي الرسول ما بين جواهر وعائلة سعيد الغائب، والذي اقتنعت والدة سعيد أخيراً بوجود أمنية وصارت تطلب زيارتها لها مرة في الأسبوع، كونها لا تود مقابلة جواهر أو المجيء إلى بيتنا .. بيت النحس هذا ما تسميه هي بعد أن عَلّقت هروب وخيبة غياب سعيد على زواجه من جواهر ..

فتحتُ الباب ولا أحد

أشعر أن أحداً هنا وأسأل من هنا .. عمتي زكية؟

يجيب صوت اقتلع روحي ..

صوت جهوري

صوت يخترق قلبي كرصاصة رحمة

لا

- أنا فهد .. أعتذر

- محمد موجود؟

تركت الباب مفتوحاً وركضت باتجاه أقرب غرفة

حسبتُ أني طويلة ممشوقة القوام

حسبتُ أن جديلتي معتدلة منسدلة على ظهري

وليستْ عوجاء مائلة

حسبت أني بطلة مسلسل والبطل يغرم بها من نظرة تربطه بالطفولة وحكاية قديمة

حسبت كل شيء إلا أنّ فهداً غادر عتبة الباب ولم يكلف نفسه عناء الانتظار ليأتي محمد أو حتى لينظر إليّ ..

عرفت أن وجهي ظل عالقاً

أنثى لا تصلح لشيء سوى للشفقة ..

أنا أبكي الآن ..

قريتنا تحكمها عادات وتقاليد ربما نتشابه بها مع الجميع .

تبدأ الأعراس مبكراً لتعلن عن الفرح وتخبر الجميع أن اليوم هو للأكل والرقص ولبس كل ما هو مبهج ..

صوت جواهر يصفق لأمنية وكعادتها تغني لها وتتمنى أن تكون عروساً، وكنت أعرف أن هذه أمنيتها أيضاً ..

أخواتي للمرة الأولى أنظر إليهنّ وهن يقفن أمام خزانة ملابسهن ويتبادلن الحيرة بالملابس .. وكل واحدة تقرر أن تقترض من الأخرى شيئاً لتبدو أجمل

إلا ملابسي لم يفكر أحد أن يستعير منها شيئاً، لأنها جميعًا بنفس اللون والشكل مهترئة .. لأن عينيّ لم تدركا أنهما حين تفكّان غبشهما القديم، لن ترضيا عما ألبسوه لجسدي طوال هذه السنوات.

أجلس بزاوية حادة أضم رجليّ إلى صدري وأتكئ بوجهي على ركبتيّ.

أحبس تلك الغصة التي علقت بحنجرتي، أنظر إليهنّ وفرحتهن لزواج فهد وللرقص وللأكل وللقائهن بنساء الحي لعل الكثيرات منهنّ تعجب بهنّ وتختارهن زوجات لأولادهن ...

إلا أنا،، بدأت أهتز في مكاني متوترة والغصة انفلتتْ وصارت دمعًا أتلقفه بظهر كفي خشية أن يراه أحد ..

أنا لا أبكي لكل ما سبق

أنا أبكي لأن الحلم ما عاد لي .. لأن وجه فهد سينتقل من أحلامي لأنه لم يعد هناك ما يدعو للتبسم ..لأن الجميع يظن أنّي عمياء وأنا الآن مبصرة ..

أتنهد ..

أنا هنا في وسط زحمة أولئك النسوة، ورائحة القهوة العربية، بدلالها الكبيرة، تنسكب لتملأ الفناجين الصغيرة التي لا تشبع هذه الرغبة أبداً.

ألسنتهنّ التي تزغرد تارة وتغني تارة أخرى، وتتحدث كثيراً عن كل شيء ..

الرقص الذي يشعرني بأن الأرض تهتز، أشعر بأدق التفاصيل ..

هذا الشعور الذي يجعلك تنظر إلى الوجوه وإلى كلّ هذه الضوضاء وكأنها صامتة .. وكأنك تسأل كيف يصمت الكون للحظات؟!

لتعرف فيما بعد أن داخلك المزدحم هو من يصمتهم ..

وبعد ساعات .. اعتلى صوت الزغاريد لتنبئ الجميع أنّ فهداً وعروسه أقبلا، اعتلى السواد فوق الرؤوس .. لتلبس النسوة العبيّ استعداداً لدخول الرجال، وحتى العروس كانت بغطاء أبيض ..

كنت سعيدة لهذا، لأنّي أود أن أحتفظ بملامح هيفاء صديقة طفولتي كما كانت، وأحتفظ بصوتها الذي فارقني منذ سنوات ..

لبست عباءتي لأترك مسافة

فتحة دقيقة أبصر منها ..

يدخل فهد، أنظر إليه من بعيد، إلى رأسه وعقاله

ثم أقترب لأسترقَ النظر إلى طرف غترته

أقتربُ أكثر والزحام حوله، ابتعدتُ أكثر لأقف بإحدى الزوايا المواجهة للكرسي المعدّ له ولعروسه والمغطى بالقماش الأبيض الساتان اللامع .

اقترب فهد ..

لم أنظر إلى وجهه كنت فقط أنظر إلى كفـيه المُمسكين بأصابع هيفاء إنهما كفّاه السمراوان العريضان اللذان بنيا لي قصر الطين وبقيا هناك، حيث أحلامي ..

رفعت رأسي بشهقة ثقيلة، أنظر إلى وجهه

وإلى ابتسامته وعيناه تجولان في كلّ الوجوه لتسقطا على نصف عيني التي تنظر إليه من الخط الضيق من غطائي وهنا تسقط دمعتي ...

ظلّتْ عيناه معلّقتين ليعرف من أنا، وأنا ما زلت أبكي خلف خِدري ..أحياناً تخفي العباءة شخصياتنا لكن تبقى ملامحنا تحمل علامة استفهام .. من نكون؟

شققتُ الصفوف ورائحة الزحام؛ لأعود إلى المنزل أحمل غصة أنوي الخلاص منها، ووجعاً أنوي ولادته.

المخاض الذي تشتهي أن تشهده وحدك، وتقتل جنين الخيبة دون أن يشعر بك أحد .

رجعت والجميع هناك، عدتُ ولم يتنبّه لي سوى حنان التي كانت تنظر إليّ وكأنها تواسي خيبتي وتخبرني أننا بالوجع سواء .

دخلت غرفتي لأنهي حكاية عُمر .. وأُعيد لنفسي بعضاً منها ..
توضأتُ وكأني للمرة الأولى أغسل أطرافي .
أشعر أنّ الماء باردٌ جدّاً .. وكأنه يطفئ ناراً تشتعل بمساماتي الجوفاء
غسلت وجهي وتجاوزت الثلاث
رفعت رأسي وأغمضت عينيّ وقلت يا الله ..

لففتُ حجابي الأبيض على رأسي
وكنت أقف أمام قطعة المرآة المصلوبة على ظهر الباب
مسحتها بطرف (جلال) الصلاة
وكأني رأيت وجهاً آخر .. عيناي منتفختان وملامحي صفراء شاحبة
وشفتاي النحيلتان ترتجفان ..

تركتُ كل شيء معلقاً
وتوجهت إلى مُصلاي

صليت طويلاً

بكل سجود كنتُ أشعر أنّي أتخلص من شيء لأرفع من السجود وأجدني أخف .. بروح أخف ونفس أخف ..ووجع أخف.

أظن كل واحد منا جرّب هذا الشعور، فحينها تلجأ إلى الله ليخلصك من وجع ومن خيبة

ليخلصك من سرّ كامن عجزت أن تبوح به ..ليخلصك من حياة لا تنوي أن تعيشها

ويبدلك بها الرضا، والسعادة

ليهبك الأمل دفعة واحدة ويشعرك أنه قريب ..

الله قريب يا ورد قريب جدّاً ..

هذا ما كنت أقوله بكل دعاء

يا رب أبدلني حياة خيراً من هذه الحياة

كنت أرجو الحياة الآخرة

ولم أكن أعرف أن الله أقرّ بروحي السكينة

ليجعلني أعيش حياة أخرى وبطريقتي ..

انتهيت من صلاتي ومعي قرار واحد

/ أنا قبل كل شيء /

«الإيمان هو القوة التي بها يخرج عالم محطم إلى النور»

هيلين كلير

عندما تنام ومعك قرار جديد وإيمان بالله

فأنت بخير.

حتى أحلامك تتلاشى منها الرمادية ويسكنها لون الشمس الذي يوحي إليك بأن كل شيء غاب يوماً سيشرق من جديد ..

أقصد بأنّ كل شيء من ماضيك وليس الوجوه؛ لأني أومن أنّ انتظار الغائب هو موت بطيء .. وأنا قررت أن أحيا ..

أصبحت أعيش بسلام روحي، وبدأت أرتب نفسي وكأني ورقة مُزّقتْ قبل أن يكتب بها شيء يستحق الخلود .

بدأت ألصق روحي وكأنها قطعة خزف ثمينة ووحدي من يهتم بها ..

أن تجمع ذاتك المتبعثرة أمر يحتاج إلى شجاعة، أن تعيد ملامحك ووجهتك وأمانيك وحتى قلبك أمر يحتاج إلى تضحية وإلى صبر .

ولطالما وُلد القرار فهذه بسملة بدء ..

أكملتُ عشرين عاماً من تسعة أيام مضتْ ..

نسيت يوم ميلادي كما نسيه الجميع .. العمر الذي يركض باتجاه لا شيء ..

عرفت هذا عندما سمعت عمتي زكية تتناقش وبصوت عالٍ عن عمر ابنة العم عبد الله التي تكبرني بأسبوع وكانت تذكر عمتي ذاك اليوم جيداً

وحينما تتناقش النسوة فطبيعي أن تستميت لتثبت كلامها، وهذا ما جعلها تطلب من أمي ورقة ميلادي .. كنت أتابع الحديث باهتمام لأعرف كم مضى من عمري ..

أعرف بعد أعوام .. سيكون هذا العمرُ عمراً طفوليًّا، ولكن أحتاج أن أخبركم أننا هنا حيث تحكمنا العادات فهذا العمر هو لأنثى تصلح لكل شيء، لانتفاخ بطنها مراراً؛ لتكون مسؤولة عن ثلاثة أو أربعة صبية.

عمر الحياة الزوجية يبدأ كما بدأ عند أمي وأخواتي والجميع أربعة عشر عاماً ..

الحمد لله تجاوزت هذا وهربت منه إلى الظلام ..

أحياناً الأقدار التي أوجعتنا مليًّا هي ترسم لنا النور في النهايات ..

إذاً

عشرون عاماً مضت ..

أحتاج أن أترك لنفسي رسالة بهذه المناسبة وكأنه احتفال أقيمه لي وبطريقتي ..

إليَّ بعد عام

لقد أكملتُ العشرين يا أنا ..

في الواقع،، عشتُ منها أحد عشر عاماً في النور

وتسعة في الظلام.

هل يحق لي أن أحسب سنوات فقد ناظريّ ..؟!

وجعي وحقيقتي المزورة ..!

وجهي الذي أخفوه عني

وعمري الذي توقّف منذ أن انطفأ نور عيني؟!

جسدي الذي كبر وتركني معلقة بعمر أحد عشر عاماً؟!

حلمي الذي كان يعدني بالحياة ومع عودة عينيّ .. رحل ..!

هل يحق لي أن أقول إن عمري عشرون الآن؟

وإني تجاوزت مرحلة الطفولة وأصبحت مسؤولة عني؟!

أحتاج أن ألدني من جديد، أعتني بي، وأعدني بمستقبل أجمل.

أحتاج أن أسميني، وأختار لي قدري، بعيداً عن هذا الحائط الإسمنتي.

بعيداً عن عمتي زكية وخيبتها، وبكاء أمي الذي لا ينتهي.

وشخصية جواهر المتقلبة، وعن كل الوجوه التي زرعت بوجهي ندبة لا تشيخ أبداً، وبفمي مذاقاً مرّاً

كل عام وأنت يا أنا بخير .. ومبارك مولِدك من جديد!

مرتِ الأيام متتالية دون جديد يذكر، رتيبة بطيئة وروتين متشابه هذا على الصعيد الأسريّ.

لكني كنت أشعر أنّ البداية لذيذة رغم أنها شاقّة، لذيذة بالقدر الذي يجعلك تشعر بلذة النور والهواء والطير والماء

كأي كائن حي يحتاج هذه المقومات ليحيا أولاً، ثم ليكتب ما يخلده.

لهذا طلبتُ من عمتي زكية أن تصطحبني إلى مدرستي الابتدائية

كنت أحتاج لملفي الدراسي

كنتُ أريد الشهادة الابتدائية حيث توقفتُ ..

عمتي زكية صعبة الإقناع، كنت أجاهد من أجل هذه الصحبة ..

أنا في الواقع لا أحتاجها .. ولكن أذكركم أني أمامهم ما زلتُ عمياء ..

وأخيراً جاء هذا اليوم .. كنتُ أستعدُّ له وكأنه يوم دراستي الأول..
وصلت إلى بوابة المدرسة .. لم تتغيّر طوال هذه السنوات،، وحده
وجه العم (كمال) حارس المدرسة هو من تغيّر حتى الصافرة التي
في فمه صارتْ ترتجف كثيراً قبل أن يطلق الهواء المتقطع بها ..
كنت أنظر إليه وكأنه بالأمس حين كان يمسك بيدي، ويعبر
الشارع خوفاً عليّ وعلى أخواتي من السيارات ..
وقعتْ عيني على كفِّه، وعلى أصابعه التي فقدها في الحادث حينما
فقدت عينيّ .. كم تمنيت لو أنّ الأطراف تنمو من جديد، أخاف
منظر عضو في الجسد قد فُقد وبات مصلوبًا، أشعر وكأنه خلْقٌ لم
يكتملْ وأظل أرقب اكتماله ..
سبحانك ربي ما أعظمك .. وكيف صورت الإنسان وأحسنت
تصويره، وتقويمه.

يقطع ثرثرتي الداخلية صوت عمتي زكية وهي تخبره أن هذه عفيفة
ليقول من عفيفة وأقولها أنا أيضاً: من عفيفة؟!

- ورد .. إزيك يا بنتي عاملة إيه
يقولها لي العم كمال

لأجيب ..

- بخير يا عم بخير ..

وأبكي ..

كيف لقلب مثل قلبه أن ينسى أصابعه ووجع كسره ويمضي باتجاه الحياة؛ ليعود لنفسِ كرسيه والشمس التي تخشّبَ تحتها، ليكمل ما بدأ.

دخلت إلى المدرسة ومعي شهادة الأمل من العم كمال .

الشهادة التي تهبها لك الحياة على هيئة رسائل مجسدة بأشخاص.

رفعت رأسي إلى الأعلى، إلى السقف المستعار بساحة مدرستنا، إلى الأعمدة المتعاقبة والتي صدئتْ .

وإلى الزوايا وللوحات التي اهترأتْ وهي معلقة ..

كل شيء كان كما هو ..

كل شيء يشيخ طالما هو بمكانه، ينتهي عمره وهو واقف ..

كل شيء يحتاج لعناية كما هي أرواحنا ..

أسمع صوت أبلة (فضيلة) ..

يا الله ما تزال تصرخ كل هذه السنوات!

تدخل عمتي زكية لتنهي حكاية إلحاحي وتجلب ورقاتِ دراستي الست ..

أسترقُ اللحظات لأذهب إلى فصلي الذي يقع قريباً من الدرج

كان أضيق فصل في المدرسة .. في الواقع هو مطبخ سالف وتحول لصف دراسي.

لا يهم ..

أين هو الآن ..؟!

وضعت يدي على مقبض الباب الذي صار مناسباً لحجم يدي بعد أن كان كبيراً عليها.

يدي الصغيرة العبثة .. والتي جاءت متأخرة في آخر يوم دراسة لها كنت أشعر بحرارة يدي وارتجافها وكأنه اليوم ذاته ..
فتحت الباب ليصدر صوت زمجرة .. حتى الأبواب تشيخ ..
الكراسي المصفوفة باتجاه السبورة والطاولات ممتلئة بالذكريات المكتوبة على ظهرها .. رحلنا وتركنا حروفنا معلقة هناك .
جالت عيناي على كل المقاعد الفارغة لكنّي كنت أرى كل الوجوه تستقرّ بها
هذه هناء وهذه مشاعل وهذه نور، هذه العريفة أسماء وهذه المشاغبة أماني .. يا الله .. كيف حالكن الآن هذا ما كنت أقوله وبصوت عالٍ ودمعي يشهد ..
قبل أن أخرج ألتفتُ إلى الكرسي الأمامي، وإلى الطبشور الأصفر الذي تحب أن تكتب به معلمتي حسناء . والتي توفيت إثر الحادث ذاته ..

كنت أظن أنها الأقسى قلباً .. ما عرفت أن هناك قلوباً يُتعبها التظاهر

وأنها تحمل روحاً نقية وقلباً يتسع للجميع ..

رحمك الله يا معلمتي ..

صوت عمتي زكية تنادي

دخلتْ لتسحبني من كفي ..

وبكفي الآخر طبشور أصفر ..!

بعض الأحداث أكبر من أن أحكيها، من أن أقصها لنفسي كحكاية فارغة لا تهم أحداً غيري، كأنشودة بفمي لا يسمعها سواي كلحن قديم لا يطرب مسمع من حولي ..

لهذا سأتوقف حيث هنا ..

أنفض بعض التفاصيل الصغيرة المليئة بالأحداث الباكية الضاحكة..

وأعيد ترتيب نفسي، من لحظة انتقالنا من الحي ومن تراب الطرقات.

من صوت بائع الحلوى ومن رائحة مخبز العم إبراهيم.

من صراخ الأطفال وراء الكُرة لاصطدامها بالنسوة المتجولات.

ومن كل الذكريات التي تركناها على الأرصفة ورحلنا .

رحلنا بأجسادنا وهويتنا ..

اختلفتْ فقط تفاصيلنا.

حنان، أرملة ومحمد متزوج، أمي بعكازها حيثُ تلقفها العمر بذراعيه، وأنا أبصر من جديد.

وحقائب بها الكثير من التمنّي والقليل من الأحلام!

نسيتُ أن أخبركم أنّ أبا فهد تُوفِّيَ إثر نوبة قلبية، لترثَ حنان نصيبها ثروة تكفل للجميع حياة طيبة

كنت أعرف أنه يكتنز المال ويخبئه بطريقه ما

وكنت أعرف أيضاً أنّ الموت وحده من يكشف هذا.

قبل أن نرحل كان كل منا يودع أحبابه وكأنه فراق أخير.

أمي تودع جاراتها ومطبخها، وعجوز الحي التي كانت تقضي جلّ يومها تحكي لأمي وتبكي، كنت أظن بفراقهما خيرًا لعل أمي ستبتهج يوماً دون بكاء العجوز المستمر.

عمتي زكية تحمل بيديها غصن ريحان، تخرج من الباب كل يوم تنوي الذهاب إلى بيت عيسى؛ لتضعه على مقبض الباب وتنهي حكاية لم تنتهِ.

ما بين التردد والكبرياء، تمضي ومعها قلب بنصف نبض ينوي الحياة.

تطرق الباب الذي فارقتْ عتبته منذ سنوات، تنتظر عيسى ليجيب لأنها تعرف أن والدته توفيَتْ، ووالده شيخ كبير هرِم .

تسمع صوت أقدام ويُفتَح الباب، تنظر طويلاً بوجه ذاك الشاب الممتدّ الأسمر؛ الذي استرقَ ملامح عيسى، بلونه وبعينيه، وبصوته وتجاعيد شعره.

الملامح تورث أحياناً لتعرف أنه ابن عيسى وكانت تعرف هذا سلفاً، لم تبكِ، وإنما تركتْ غصن الريحان في مكانه؛ ليموت هناك، وتنبتَ هي من جديد .

كنت أسأل نفسي كيف يزهر الغصن بعد أن يجتّث من جذوره؟!.

أظن أن عمتي قررتْ أن تكون ذاك الغصن، الذي ما عاد به زهر ولا حياة ليورق من جديد .

الحياة لا تنتظرنا، ولا تقف لننتهي من نوبة البكاء التي غالباً تعمي أعيننا، وننسى كم أخذتْ من أرواحنا التي تشيخ، وأجسادنا التي ما عادت تصلح لشيء ..

أنا ابنتك عمتي زكية ..

سأبرك بوجعك وأكفِّر خطيئة والدي.

هذا ما قلته بنفسي عندما عادتْ

دون غصن ريحان، وبكبرياء قاتل ..

لستُ سيئة بهذا الغياب

أنا أطل من نافذة قلبك، أتنفس مشاعرك، وأسمع حديث عينيك

أشعر أني أجمل عندما أغيب.

أقفز بين أوقاتك وزحمة أوراقك.

لتبحثي عني بلهفة لا تنتهي

أنا لستُ سيئة

أنا طفلة عنيدة وتحبك ..

جواهر .. سليطة اللسان أعرف أنكم تسألون أين هي من هذه الحكايا المتدفقة ..

عاد سعيد بعد أربعة أعوام من الغربة، جرّب كل شيء

كيف ينام من دون سقف وكيف يعمل بأي شيء وكيف يخاف الليل.

وكيف يرضى بالقليل، تعلّمَ أنّ الغربة كانت عقوبة وأن الهروب إليها موجع ..؟

عندما نغترب نحن نبني أنفسنا، نضيف عليها ونعطيها لنعودَ أقوياء

ونبرر للجميع أن لاغترابنا سبباً .

فما حال من لم يجد سبباً، ويترك غصة بحنجرة الجميع ويمضي؟!

عاد سعيد بعد كل هذا، ومع هذا يمسك بيد زوجته التي زوجه إياها الحب وليس العادات والتقاليد، كزواجه بأختي جواهر .

كان شرط والدته لترضى عنه، أن يعيد ابنته أمنية لأحضانه لتحيا ببيت والدها وبين إخوتها .

عادت أمنية مع والدتها جواهر ..

عادت جواهر وكأنها تزف من جديد، تضحك بصوت عالٍ،

وتصفّق للهواء وللحياة، تزغرد لخيبتها ولسنوات عمرها التي طوتها وهي تحلم بعودته، الأحلام التي جاءت بساق أعرج تتمايل ورضيتْ بها!

عرفتُ حينها أن الحب أعمى؛ لدرجة أنك لا تبصر نفسك وتضيع بالظلام .

الحياة هنا لا تختلف كثيراً عن القرية.

ما يختلف هي الروح التي تركتها هناك، وقررتُ أن أنجبها من جديد.

أن أجرِّبَ كل متاعبها ووحدي من يشهد مخاضها ويفرح بها ويترقَّبُ برها، قررتُ أن أجدني قبل أن تضيع بقاياي وأهلك.

أن أكون صالحة للحياة من جديد .

ولا أفلِتَ يديَّ حنان أبداً.

أن أعيدها إلي، و أغسل كل متاعبها، وأجعل لها الأولوية العظمى تحديداً في حقها في الميراث؛ والذي ننعم به جميعاً .

كانت حنان تساعد جارتنا أم أحمد في الخياطة وتعرف الكثير عنها .. فقط تحتاج من يمدّ لها يد العون؛ لتبدأ ..

أخبرتُ حنان بسري الصغير وفرحي الأكبر، أخبرتها أني أبصر منذ

العيد .. وما زلتُ أنتظر عيدًا آخر لأعترف .

لم تفعل شيئاً سوى أنها احتضنتني بقوة وهذا يكفي لأشعر أنّي وهي بأمان .

اشترى لها محمد آلة خياطة؛ لتبدأ بها وقبل أن نفتتحَ لها غرفة مستقلة تحت بند مشروع صغير .

كنت أقضي جلّ يومي معها أساعدها، وأتأمل فرحتها وهي تنسى كل متاعبها وتخيط لها ثوباً من فرح .

كانت عمتي زكية تشتري خيوطاً فاتحة اللون وأقمشة مليئة بالحياة..

عرفتُ أنّ عمتي بدأت تتنفس هواءً جديداً بعيداً عن سماء عيسى .

الساعات التي أجلس بها أمام ماكينة الخياطة مقابل حنان وابتسامتها؛ كانت بمثابة نافذة فُتِحَت لي، أبصر بها الحياة بطيرها، وبشجرها، وبزهرها، واخضرارها ..

تعلّمتُ كيف أجمع نفسي بعد كل صدمة

كيف أعيد ترتيب ملامحي بعد بعثرتها

كتحفة ثمينة ألصق قطعها بصمغ بالٍ!

تعلّمتُ كيف أقوّم اعوجاجي.

وكيف أركض بساق عرجاء

كيف أزرع ياسميناً على شرفات نافذتي ولا أنتظر المطر.

كيف أفتح عيني بكل اتساع وشجاعة في وجه العواصف.

كيف أحتضن نفسي كل ليلة وأحكي قصة دون خاتمة

أجعل النهايات مفتوحة كأحلامي كالأقدار المجهولة التي نؤمن بجماليتها، وبصدق ندعو أن تأتي ..

الحياة بسيطة عندما تبدأ بنا ..

تتسع لكل شيء حتى لأحلامنا العالقة بالسماء .

كلما لامس جبيني الأرض في السجود، واختزنتْ عينايَ بالدموع وملأني خشوع وانكسار؛ ذكرت ذاك الوعد الذي قطعته على نفسي ليلة زواج فهد، وانتهاء حكايته بسجدة ودعاء .

رددتها بكل كبرياء وثقة، بكل أمل وبكل حياة،، فالجبناء وحدهم من يفشلون في مواجهة أقدارهم، ولا يستطيعون الركض باتجاه أنفسهم والعودة من جديد ..

لا شيء يجعلك تثق بنفسك إلا بعد ثقتك بخالقك، وأنه وحده سبحانه من سيجعلك تقف من جديد

وإنْ كسرتْ الأيام كاحلك .

أنا قبل كل شيء..

أتنفس بعمق حين أرددها، أغمضُ عينيَّ وأفتح ذراعيَّ للسماء.

أنا لا أحتضن ذاتي لأني لا أخاف ضياعي من جديد!

قررتُ أن أعود بغصن ياسمين بين خصلات شعري، وبلوز أخضر ينبت فوق صدري، وبآمال تتأرجح ما بين كتفيّ، وبابتسامة عالقة على ثغري لا تنوي الرحيل.

كل هذا يبدأ،، حينما أقوّم اعوجاج كل السنوات التي مضتْ.

سنوات الظلام بعد أن غادر النور عينيّ، التعليم الذي غصّ عند المرحلة الابتدائية وما زلتُ أخشى أن تبتلعه سنوات عمري.

الموهبة التي طُويتْ ودُستْ بصندوق قديم غير آبهين هم بها.

الرسائل التي كنت أرسلها لنفسي .. ما حالها ..؟!

الطفولة التي جعلتني مهشّمة، ومرضي الذي جعلني لا شيء في أعينهم وكل شيء هو علمني.

أنا ..

أنوثتي ..

كتلة الدهن المحمّلة في جسدي؛ لتخبر الجميع أني سمينة .. والندبات الموشومة في وجهي.

كل شيء قابل للإصلاح كتحفة فنية ثمينة.

سأعيد جمع ذاتي .. هل قلت هذا من قبل؟!

كنت أفكر كثيراً، كيف أخبر أمي أنّ ابنتها تبصر كنت أتخيل حجم دمعها وفرحها، وأتوق لأشتمّ رائحة أحضانها .

في كل يوم أوضبُ كلامي وكأني أستعد لإذاعة مدرسية .

أحفظ القصيدة وأكتبها بورقة لأزيح عيني عن المواجهة وقبل الطابور أكورها بيدي وأنسحب، هذا ما كنت أفعله، ولم أعرف بعد السبب في ذلك.

المواجهة لا تحتاج إلا لك .، ولعينيك ولقلبك

أقف أمام حنان وهي منهمكة في الخياطة، وأتخيل أنها أمي، ثمّ أخرج من الغرفة، وأقف عند الباب وأطرقه .. أطل برأسي

أوه لقد نسيت كيف أطل برأسي وأنا عمياء .

وأعيد المشهد.

أخرج وأطرق الباب، أفتحه لتدخل عصاي ويداي أولاً وأقول:

- أمي أنت هنا .

أنتظر حنان لتجيب ..

أمتعضُ من صمتها .

لا بأس سأكمل

أمي، وأسير بخطوات نحوها، لأستنشق رائحة الحناء من يديها أقبلها .

أجلس بين يديها .

أمي .. أنا أبصر.

لا لا

كيف أخبرها أني أبصر هكذا وكأني أحكي لها نكتة ظريفة!

لا أتصور ستتقبل هذا!

لا بد من سيناريو آخر .

آه يا رب

هب لها حلماً يخبرها بكل شيء وأني أحبها .

أسمع صوت إبرة الماكينة تضرب بقوة وعلى وتيرة واحدة

شعرت وكأنها تصفّق لي، أضحك أن هناك من كان يستمع لي

شكراً لك يا الله ..

أتقرفص بجانب حنان لمساعدتها بنظم الخيط بالإبرة تلك المهمة الشاقة عليها.

أبتسم .. وأضع أمام عيني الإبرة والخيط

لأرى عمتي زكية تقف مذهولة وتنظر إليَّ ..

أرفع رأسي ببطء وخوف

تصرخ هي بصوت عال:

- أنت تشوفين ؟!!

أسكتُ أتلعثم .، الدمع يمتلئ بعيني ويداي ترجفان

تركض للخارج وتنادي بصوت عالٍ:

- أم محمد إلحقي ... تعالي وينك؟

وأنا ألتفت إلى حنان ويدي على رأسي أنظر إليها وبسرعة أعاود النظر إلى الباب .. لتجيب حنان: أنتِ نسيتِ تقفلي الباب!

تذكرت السيناريو وخروجي ودخولي ..

وتذكرت أني طلبت من الله حلماً وليس كابوساً كعمتي زكية

أسمع صوت عمتي ومحمد وأخواتي ... ياااااه الضجيج عالٍ ..

نحو الغرفة قافلة أقدامهم تسير ..

بل تركض ..

وقفتُ

تراجعتُ إلى الخلف بأقدام تتأرجح غير ثابتة، أتعثر بكل شيء

حتى بالهواء، لأجد ظهري على زاوية الحائط .. وكأنه جيب صغير سأدس عينيّ به ..

دخلتْ أمي، كنت أنوي أن أرفع عينيّ نحو السقف؛ لكن وجدتُ نفسي أنظر لها مباشرة؛ وكم تمنيت ذلك ..

تركض نحوي ووجهها ما بين مُصدّق ومُكذّب، فاتحة ذراعيها لتسألني:

- يمه .. عفيفة .. أنت تشوفيني؟

لم أجب وكأني أخبرها بصمتي أني ورد لستُ عفيفة

- يمه جاوبي ... يا بنتي أنت تشوفيني .. صحيح كلام عمتك؟

أصمت ثانياً ووجهي كله يرجف، أنظر إلى عمتي التي تقف خلف أمي، وتضع يديها حول خصرها العريض، وتهز رجلها.

أخواتي حولي وينظرن إليّ ويقضمن أظافرهن وكأنهن ينتظرن لحظة الإعلان .

كأني مولود جديد والجميع يتوق أن يعرف جنسه، يبحثون بوجهي عن عينيّ وهما أمامهم ..

زفرتها وبصوت متقطع

- إيه يمه...

صفعتني على خدي .. حتى استدارتْ رقبتي بالكامل
لتحتضنني بعدها وتصيح يا الله ..

احتضنتني أمي أخيراً ولكن شعري حال دون أنفاسي ورائحتها
ووجع رقبتي أيضاً ..

الصدمة تفعل كل شيء فلكل فعل ردة فعل
أظن أني أستحق هذا .. هل أستحق هذا فعلاً؟!

أنا أبكي الآن ..

«ليس المهم أن تكونٍ في النور كي ترى . . المهم أن يكون ما تود رؤيته موجوداً في النور» .

عباس محمود العقاد

لا أحتاج أن أحكي لكم التفاصيل الدقيقة الممتلئة بالتفاصيل المتشابهة، فكل الحديث هنا له المذاق نفسه، أشعر أننا في الحلقة الأخيرة من مسلسل درامي ..

كل ما يستحق الذكر أني كنت أكذب كثيراً، أكذبُ بالطريقة التي تجعلني أشاركهم الضحك ولا أحد يشاركني البكاء .

أكذّبُ حين أخبرتهم أني سعيدة الآن، سعيدة بكل المفاجآت التي تركوها مصلوبة أمامي لتكشفها لي المرآة، وبكل الحكايات التي تحكيها أعينهم وأنا عمياء، وبكل الأصوات التي كنت أسمع حسيسها دون مشاركة .

بكل اللحظات التي شاركتُ بها نفسي البكاء والدعاء

بكل الأوقات التي كنتُ أكتب فيها رسائل إليَّ بعد عام، بكل الأحلام التي خبأتها في جيب قلبي ولم أخبر بها أحداً ..

بكل الخطوات التي أسندني بها جدار وعصا، ولم أمدّ يدي إليهم ولا إلى الريح؛ لأني أخاف أن أفقدني ولا أجدني مرة أخرى ..!

دعوني أضحك الآن، وأكذب؛ فبعض الأحاديث القصيرة تتلاشى سريعاً، وتنتهي ولا يذكرها حتى لسانك، لأنك نويت التخلص منها عن طريق أكذوبة بيضاء تبحث بها عن مخرج لأنفاسك؛ لتحيا.

«سمعت كلمة مستحيل أكثر من مئتي مرة خلال اختراعي للغواصة» .

مهند أبو ديه (مخترع سعودي أصيب بالعمى)

١٥/ ٨/ ١٤١٣ من العام الهجري

صباح جديد، ويوم آخر، أشعر أن الشمس للمرة الأولى تخترق عينيّ لتدعوني للاستيقاظ بالطريقة التي تجعلني أقفز فوق سريري كطفل يحدث ضجيجًا ليسعدَ نفسه .

إنه اليوم الأول لي في المدرسة .

لبستُ الزي الكحلي كنت أراه أجمل ما ارتديت!

أنظمُ أزرار القميص وأبتسم، حتى ذاك الزرار العنيد من جهة المعدة كنت أخبره بأن لا يفسد جمال يومي وسعادتي، وأني قريباً سأتخلص من وزني الزائد، و كمية الشحم المتكدس؛ لأريحه من صراع أصابعي معه .

أمشّط شعري وأجدله جانباً وأغني بكلمات غير مفهومة، وكأني أجمعُ كل أغاني الفرح بشطر واحد!

آخذ الشريطة البيضاء وأقول لنفسي: لقد كبرت عليها فمضى وقت طويل وأظنكِ لا تحتاجينها يا ورد .

أربط حذائي وأعيد ربطه حتى لا ينفلت وأتعثر؛ فأنا بحاجة لكل خطواتي اليوم ..

أحمل حقيبتي، أخرج من غرفتي، أبتسم بوجه أمي، ترد لي بابتسامة نصف راضية .. فالجميع وأمي معارضون عودتي لمقاعد الدراسة ولم يتّضح لي سبب معين، غير كلمة مستحيل و سلة أعذار لم آبه بها ولن آبه .

نحتاج دائماً للبدايات الحقيقية؛ لنخلق أنفسنا من جديد ..

دعواتك أمي، هذا جلّ ما أرجوه .

ألوح بيدي وأخرج، دون ساندويش وريالين، هنا عرفت..... أني كبرت حقاً .

سنة أولى

ومقعد خشبي صغير

في الطريق إلى المدرسة المتوسطة ..

كنتُ أدعو الله كثيراً ..

دعوات مختلطة ما بين رجاء وقلق، وما بين يقين وأمل .

كنت أردد (أنا قبل كل شيء) وأشعر وكأنها فاصلة تمنحني الكثير من الثقة؛ لأكمل ما نويت إكماله، وأصلح عطب الظلام الذي جعلني أتعثر وأنمو دون إدراك .

أحياناً، أشعر أن هناك الكثير لا يحتاج لعثرة ليسقط أو عاهة ليبدأ هو فقط يحتاج إلى روح تعلِّمك أنّ ذاتك تستحق كل التضحيات، وأنّ لنفسك عليك حقّاً!

رنّ الجرس فوق رأسي وبصوت عال، نبضات قلبي تزداد، أقف في الطابور وفي الصف الأخير تحديدًا، كوني الأطول والأضخم جسداً والأكبر عمراً .

نظرات الجميع تحيطُني وتحوم حولي وكأنها شباك تلتف بي .

لم آبه لها كثيراً فكل شيء خارج عن المعتاد سوف يواجه المصير نفسه .

دخلنا الفصل لأرى الفتيات يتسابقن لحجز المقاعد الأولى وبصوت عال، ركضت لأزاحمهن على مقعد أمامي كما كنت أفعل

دائماً وطول سنوات الدراسة، وحصلت أخيراً على مقعد خشبي صغير لا يكفيني..

كنت أتمنى لو أن أجد بين نظراتهن وضحكاتهن مقعدًا آخر ..

دخلتْ المعلمة ليقف الجميع وأقف معهن أرحب بها وبالود لو أني أحتضنها، كنت أرى كل معلمة بوجه معلمتي حسناء التي توفيتْ بسببي.

أعني في الحادث الذي أفقدها عمرها ..

وقفتِ المعلمة لتنظر لي بنصف عين، وتطلب مني أن أعود إلى الخلف لكوني الأضخم جسداً وأشكّل حاجزاً يمنع الرؤية عن الطالبات.

كنت أريد أن أخبرها أني عشت تسعة أعوام بالظلام، وأحتاج أن أكون هنا في المقدمة كما كنت

أحتاج لأدفن النور بعيني وأحتضن اللوح والطبشور، دون أي رؤوس تتقافز أمامي .

عدت إلى الخلف وأنا أجر كرسي الخشب الصغير وحقيبة بها الكثير من الأحلام .

صباحاتي صار لها رائحة تختلف

تلك الرائحة التي تشعرك أنك بمنفى لا تضيع به وتجد نفسك في كل الاتجاهات، المكان الذي يشعرك أنك تنمو كزهرة فوق غصن أخضر تتمدد بأوراقك وبجذورك، تزهر دون مساعدة وتفوح عطراً يتوق الجميع للانتشاء به ..

أصبحتُ أجدني بين جميع العقبات التي تحاول تهميشي بين كل الصفحات التي عجزتْ ذاكرتي عن حفظها، بين مسائل الرياضيات وكم مرة قسمتني قسمتها وجلدتني جداول ضربها .

كم مرة وجدتني ناتجاً لا يساوي شيئاً؛ لأعيد المسألة وأصطف بجانب الصفر وأرفع يدي!

أعلن وجودي بالتحدي الذي يجعلني أصفق لنفسي بعد كل مرة أنجزُ بها واجباً!

النظرات ما عادت تحمل سهاماً سامة، والضحكات الساخرة تحولت إلى مَبسم صباحي راضٍ

والأصابع التي كانت تشير إلى طولي وتضخم جسدي وفارقي العمري، أصبحت تلوح لي وتدعوني للمشاركة بوجبة الفطور الجماعي

أصبحتُ صديقة للجميع حينما قررت هذا ..

في أحد مواسم الفرح
المواسم التي لا تكف عن الضحك.
التي جعلتنا ننمو بطريقة سريعة
ونتمسك بها كحبل ننشر عليه آمالنا وأحلامنا ..

كنت أتمنى أن أصبح معلمة
فقط لأن معلمتي كان ينصت لها الجميع!

وتمنيت أيضاً أن أتزوج.
لتسمح لي أمي بالحمرة وقص الشعر!

كبرنا..
ولم أنلْ شيئاً من الأماني السابقة.
لكن مواسم الفرح عالقة بروحي.
تزهر كلما أرعدتْ سماء حزني.

الحياة جميلة
حينما نقرر أن نحيا بها ولو بروح الطفولة وأحلامها ..

أجمل الأشياء تبدأ حينما تسعى إليها، تستشعر تلك اللذة التي تسكن روحك، كموطن من الحلوى بنكهة لا تنتهي .

حينما أصنع صداقات بالفارق العمري، وأشاركهن اللعب ليشاركنني الأحلام ..

كنت أصحو قبل موعد صحوي فقط؛ لأجهز الفطائر كرشوة أو كما كنت أسميها عربون صداقة .. فملء المعدة كان الطريق الأقرب إلى قلوبهن .

لا بأس ..

أنا أحاول، فإذا أردت أن تقحم نفسك، لا بدّ أن تعرف كيف تصل إلى قلوبهن أولاً؛ ليقبلوا وجودك ويشاركوك ما تصبو إليه .

لم أكن أبحث عن وجه يلازمني طوال ساعات يومي، كنت فقط أريد أن أدس حجمي الكبير بوسط أكتافهن الصغيرة؛ لأبتعدَ عن تلك النظرات التي كادت تكون عثرة تلوي كاحل أحلامي .

لدي صديقات صغيرات الآن، ومن دون فطائر محشوّة بالجبنة ..

لدي معلمات جميلات ومتعاونات، وكم أتمنى أن أخبرهن أني لم

أكبر على النجمة التي توضع بعد التوقيع، وكلمة الشكر بآخر صفحة من كراسة الواجب .

لدي هوية الآن ويعرفني الجميع بنشاطي وحماسي وتفوقي، لقد أوشكت على الانتهاء من المرحلة المتوسطة .

لدي مناعة ضد أي شيء، أصبحتُ أنثى غير قابلة للتهشيم ولا التهميش ..

وامرأة مقسمة بين فصول، فصل للأسرة وواجبات المنزل، والآخر ما بين حنان ومساعدتها في الخياطة وترتيب مواعيد الزبائن، وطالبة تدرس في الصباح وتنجز واجباتها بعد العودة من المدرسة، وتحفظ درسها وهي تحضر وجبة العشاء، وصبية مراهقة تحلم بالكثير قبل النوم، وتخطط لحياتها كسرّ صغير لا تخبر به أحداً..

أحاول أن أتمدد؛ لأتسع لكل هذه الفصول وأحتويني خوفاً من الشتات .

اليوم هو يوم السبت .. الذي تنوي به نصف نساء الكون بدء الحمية وتنقض عهد النية في اليوم الثالث .. حيث تدرك أن الجوع مخيف والرياضة مملة ومنهكة .

وقفت أمام المرآة، ألفّ المتر حول خصري كنت أخاف أن تنتهي أرقامه قبل أن يكمل دائرته ..

نصف دائرة كان هذا مريحاً لي ولحنان التي تأخذ مقاساتي بصمت وبابتسام ..

تخيِّرُني بين كومة ألوان من الأقمشة، وتجلب لي بعض القطع والوصلات التي دستها لزبائنها المميزين وكنت منهم.

أبتسمُ وأضمُّ يديها، وأخبرها أني أحتاج إلى هذه الأرقام دون ثوب يقيدني بها.

أحتاج إلى يوم سبت حقيقي أبدأ به، ما عدت أخاف الجوع، ولا وجع مفاصلي بعد يوم أهرول به عبثاً حول جدران منزلنا

فجوع روحي وصيام عينيَّ علّمني كيف أن كل صيام بعده فهو هيِّن.

أقدامي هرولت كثيراً حول نفسها .. اعتادت هذا
فقط عليها أن تكون أسرع وجادة أكثر .

كنت أقف أمام المرآة طويلاً، أحدثني بصوت خفي: سوف أعيد
خلقك من جديد .. لا تحزني..

كل ندبة تطفّلتُ عليها في وجهي، هأنذا أداويها، وأدعو الله أن
يجعلني أبدو أجمل بعقلي لا بوجهي فقط، وأن يقنعَ العالم بهذا ..
كنت أعرف أنّ كل شيء قابل للحياة من جديد، فمن يهب روحه
يحيا؟!

في كل مرة أذهب مع حنان أو مع أمي إلى العيادة، أظل أنظر إلى الميزان
وكأنه شيء فُقِدَ مني ووجدته، أتوق للوقوف عليه وأخاف تطفلي .

الدكتور (شوكت) صار يفهم ما أرغب به، ويسمح لي في كل مرة
أن أقف شامخةً بطولي، وأغمض عينيَّ ليخبرني هو عن وزني .

أشعر أني حققتُ هدف تعادل في اللحظة الأخيرة، أصفق بحرارة
وألتفت حول نفسي كلما خسرت كيلو أو سنتمترات من حجم
خاصرتي.

عذراً للنحيلات لن تشعرن بما أشعر به،، وحدهن المكتنزات بالدهن من يفهمن هذا!

قبل أن أنسى، أود أن أخبركم أنّي في كل مرة أستعيد شيئاً مني أشعر وكأني أخلق نفسي من جديد، بعينيَّ وحواسي، ودون أن أتسلّق بكلماتهم المحبطة، ولا أطباقهم التي تُحيطُ بي من كلّ ناحية ..

لم أكن أشعر بالجوع، في الحقيقة كنت أغتسل من كل الأيام التي كنت أدس فيها رأسي بالطبق وأتناول كل ما فاضتْ به أطباقهم!

لم أكن أشعر بالإحباط أبداً، فلا شيء يوازي تلك الليلة التي أخبرتني بها نصف المرآة المعلقة على ظهر الباب ما لم يخبرني به الجميع بأن كل هذا الدهن لم يخبرك به أحد، وبأنك تحت بند العطف إلى أن ضاقت بك الأنفاس حد الموت .

أنا قبل كل شيء..

أرددها كتعويذة تحمي روحي كلما تعثّرتْ .

كلما جلبتْ لي الأحلام تلك الملامح التي تذكرني بخيبة ما .

كلما حملتُ حقيبتي وأوجعني ثقلها والكرسي الخشبي الصغير

كلما تذكرتُ بيت الطين وصوت الزغاريد وفهداً!

كلما صرختْ أمي في وجهي وشتمتني عمتي زكية ..

لا أحد يصل دون بكاء ودون وحدة

ودون انكسار وأحلام متكدسة لا يعرفها أحد غيره

الساعة العاشرة صباحاً، رائحة الطبشور تقف على طرف أنفي وصوت الطالبات ضجيج تحوّلَ إلى ثرثرة دون أنْ يسمعها أحد ما.

وغياب معلمة الرياضيات .

الفراغ الذي يفرح به الجميع ولا يرجون انتهاءه

تدخل المديرة وتنظر بعين حادة إلى الجميع

هدوء بلا نفس وكأنّ ثمة أكواباً قُلِبتْ على أفواههن وحجبت أحرفهن والصراخ ..

تضع مجموعة أوراق، وتختار خمس طالبات ليوزعنهن على بقية الفصول

عبير

أسماء

ليلى

ورد

أظنها اختارتني لطولي وحجم جسدي كالمعتاد.

وبدأت رحلة لصق المنشورات وتوزيعها، كنت مع ورقة أوزعها أقرأ سطراً من محتواها؛ حتى أتممتُ قراءتها أخيراً ..

إنها مسابقة على مستوى مدارس منطقة الرياض، غير محددة الموضوع، عناصرها سهلة ويسيرة، ولكني أظن أنّ تفاصيلها الأخرى صعبة.

مطلوب كتابة رواية لا تزيد على مئة ورقة ولا تقل عن عشرين.

تذكرتُ قبل عامين تلك المسابقة التي خضتها بكتابة موضوع تعبير ليس من أجل نفسي ولكن من أجل ألاّ يشار إليّ أنني الوحيدة التي لم تشترك، حينما كنت أحسبُ كل خطوة أتقرب بها إلى الجميع من معلمات وصديقات .

المسابقة التي سرقتُ من أجلها كتاباً من مكتبة أخي محمد، وكان للشاعر الأديب غازي القصيبي، الكتاب الذي حاولت أن ألتهمَ بعض مفرداته القوية وأكدّسها بعقلي الثخين، الكتاب الذي عركتُ عينيّ للسهر عليه ولم أكن أفعل بالعادة خشية أن أفقد بصري من جديد.

الكتاب الذي دسسته كجريمة كبرى ولم أكمله!

ربما لهذا عاقبني الله بالخسارة ولم أتصدر الفوز بالجائزة الأولى التي كنت أطمح أن أهديها إلى روح معلمتي حسناء .

همستُ لنفسي:

ما رأيك بأن نعيد التجربة؟!

ما زلت أنتظر الرد ..!

أكتب ليس من أجل الكتابة فقط، ولا من أجل أن يقرأني الغير وأحظى بشيء من الإعجاب والتصفيق؛ لأنني باختصار حينما أكتب

فأنا أحيا

أصلي

أتوجع

ألهو

أجهز طفلاً لسنته الأولى الدراسية

أربط حذاءه، وأمشّط شعره

هو يبكي وأنا أضحك ..

من لا يشعر بهذا كله هو نصف كاتب

ولا يقتحم ذواتنا أبداً .!

هدوء غرفتي وضوء شمعة وكوب قهوة، هل هذا ما أحتاج لأكتب الرواية؟

عن ماذا أكتب؟

كيف لي أن أختلقَ حكاية وأتقمص دور أبطالها؟!

كيف لي أن أعيش بداخل أجسادهم وأقرر مصيرهم!

كيف أجعلهم يبكون ..ويضحكون .. يرقصون .. ويرحلون؟

كيف أكذب وأجعل الجميع يصدقني .. كيف حينها أعرفني ..؟!

الهدوء هذا لم أعتدْ عليه .. ثم إني أكره شرب القهوة وأخاف نور الشمع أخاف أن ينطفئ ولا يعود، ينتهي وأنا أرقبه، يحترق كتضحيةٍ تُنسى سريعاً ..

لهذا مصباح غرفتي المعلق فوق رأسي سيضيء دوماً

وأبدل القهوة بموسيقا كي أدفن مسامعي بها وأكتب ..

أكتب دون توقف

هكذا قررت .. ولم أقرر بعد ماذا أكتب ..!

حينما تكتب الواقع . . فلا تنتظر النهاية . .
وحدها الأيام من تقرر ذلك . . !

سمعتُ من سارة إحدى صديقاتي في الفصل والتي تشاركني الطاولة نفسها: أنها ستكتب عن والدها الذي تُوفِّيَ في أزمة الخليج في حرب الكويت، والعائلة الكويتية التي تقاسمتْ معهم كل شيء حتى الوسائد، وعادت إلى وطنها دون أن تقدم الشكر لوالدتها.

لأنها ستعود يوماً ما، هذا ما قالته لهم ولم يعودوا حتى الآن.

ما تزال سارة تنتظر عودتهم ليس من أجل أن يقدموا الشكر، ولكن من أجل الرسائل التي كتبتها لهم ولم تصل؛ بسبب خطأ بالعنوان المُرسَل إليه ..

كانت سارة تتكلم بحماس، للمرة الأولى أشعر أن هناك من يدلني على مبتغاي دون أن أطلب منه.

فقد اعتدتُ أن أبحث بنفسي وربما عصاي كانت تتولّى مهمة البحث.

تذكرتُ أني دعوت الله في صلاة الفجر أن يلهمني لعنوان رواية أكتبها، دون أن أقترف إثم أبطالها ودون أن أكذب.

سكتُّ طويلاً وأنا أنظر إلى عينيْ سارة وعمْق صدقها.

وقررت أن أكتبني أنا ورد.

يا الله هب لي جنوداً من الصبر

لأنبش قلبي من جديد ..!

اسمي ورد الاسم الذي اختارته أمي ورفضه أبي؛ ربما لأنه يذكره بحكاية ماضية يحتفظ بها كذكرى يخفيها بجيب قلبه.

لم يناديني باسمي يوماً وعلى الأغلب كان يسميني (عفيفة) نسبة لجدتي التي لم أعرف عنها سوى اسمها، ولم أحظَ برؤيتها قط

من هنا أبدأ من حكاية اختلف فيها اثنان وكنت فيها باسمين وبروحين وبقصة أخرى تسكنني ..

هكذا بدأت وربما التعريف عن نفسي كان الطريق الأوضح إلى كلّ من سيقرؤني .. أفخر الآن حينما تبدأ الأشياء بي .. ووحدي من يكتبها!

أخذتني الكتابة إلى أبعد مما أتصور، جعلتني أقف على كل الذكريات التي طفحتْ على وجه ذاكرتي لمجرد عبوري منها .

أخذتني إلى البيت القديم ورائحة العجين وصوت بائع الحلوى وصراخ أطفال الحي، وإلى كلّ الجدرانُ التي اشتقتُ لملامستها ولم تشتقْ لكفيّ بعد ..!

أخذتني إلى فهد وإلى عينيه وصوته، وإلى الرمل والبحر، وإلى الخيبات التي علمتني كيف أنمو فوق كل شيء، وأكون أنا من جديد ...

أخذتني بعيدًا،، وعادت بي إلى هنا، إلى ماكينة حنان وإلى عمتي زكية ومذياعها القديم وإلى كتبي ودفاتري ورسائل مكتوبة لي وحدي ..!

يا الله كيف نعيش في كل مرة تنوي الأيام أن تلوكنا بقهر الظروف؟!

وكيف نتجاوز عتبة باب مرتفع لنخلد هناك حيث الأمان؟!

انتصر لنفسك بالتغافل عن أخطاء الغير
التغافل الذي يجعلك تتطور لا تتغير.

كلما نظرنا جيداً بعين أنفسنا
تحسسنا قامتنا الحقيقية

لا أحد سيهبك رأسه لتبدو أطول ..!

بقي يومان على انتهاء المسابقة، كنت أكتبُ دون توقف ما كنتُ أحسبُ أن حكايتي طويلة، كنت أتجاوز الكثير، أخاف من عين ترقبني وتشتم ضعفي، لأنني قررت أن أحيا لذاتي، أن أخلقني من جديد وها أنا أفعل .

كنت أتوسل إلى الوقت أن يمنحني بعض دقائقه ما فوق الأربع والعشرين ساعة .

قفزت لي فكرة عندما كنت أكتبني بسطور ..

توجهت إلى مكتب المعلمات، أطل بنصف رأس لا أعرف متى سأتخلص من هذه الرجفة التي تنتابني، كلما اقتربتُ من هذه الغرفة أنادي بالإشارة معلمة مادة المكتبة؛ لأطلب منها أن تساعدني بالبحث عن أسماء أشخاص عظماء أصيبوا بالعمى، ليس لأعزز من قوة روايتي ولكن لأمنح نفسي الكثير من الثقة، حينما أضمّن أحرفهم وتجاربهم في وسط أسطري لأتضخم وأبدو مثلهم.

هل سأكون مثلهم وسيتحدث عني الجميع؟!

رحبتْ معلمتي بالفكرة وحكت لي تجربة والدتها التي فقدتْ بصرها إثر خطأ طبي في بداية حياتها الزوجية، وكيف تغلّبتْ على عجزها وأنجبت ثلاثة ذكور وأربع إناث، ليتربع كل منهم على منصب ويشيد الجميع بهم وكذلك بالثناء، ورغم هذا لم يحكِ لنا التاريخ عنها شيئًا.

قالت لي: هل تظنين يا ورد أنها تحتاج إلى أوسمة شكر ليذكرها الجميع ويتعلم العالم منها، اكتبي عنهم يا ورد .

موجع أن تبحث بين زحمة العيون المبصرة عن حكاية ظلام!

ولكن بدأت ..

عندما بدأت بالبحث على النطاق الضيق وجدت المؤذن الأعمى الذي لم يتأخر دقيقة عن موعد الأذان، يصطحبه ابنه؛ ليعطي درساً إلى كلّ المارة والمصلين.

ووجدت الأب الذي واصل العمل رغم إعاقته

ليكمل أبناؤه التعليم وكأنه بهذا يبصر هو بداخله ..

مفاد هذا الدرس هو: أنه عندما تعطي نفسك حجمها، وتقدر كل الحواس الأخرى؛ يهب الله لك ما فقدت على هيئة بشر، وهذا ما يفعله الابن البار .

كثيرة جدّاً كانت الصور والحكايات ولو سردتها جميعاً لأمضيتُ شهرًا آخر حتى أنهي هذه الرواية.

دائماً تستوقفني حكاية (الأيام) لطه حسين - أشعرُ أنه يشبهني كثيراً لولا أن الله وهبني النور قبل أن يدركني الموت.

الصور كثيرة وحكايات الظلام هي الأصدق والأعمق دائماً ..

فاصلة وثلاث نقاط

(1)

ماذا لو كان باستطاعتنا أن نسأل الطريق عن نهايته، عن عمر مسيرته
عن الأوجاع التي تكومت على أرصفته، عن الأحلام التي شهقت
عند آخر منعطف منه ..

عن الوجوه التي تخافه والقلوب التي تؤمن به ..!

(2)

يا رب استودعتك أحلامي الكبيرة!

التي ما حسبت يوماً أنها ستكبرني

وأنها ستتضخم إلى الحد الذي يجعلني أنام طويلاً ..

وأخاف أن تفلت مني لأصحو على واقع ضيق لا يكاد يتسع لأنفاسي..!

(3)

الأمنيات لا تكبر

كذلك أحلامنا المعلقة

كل ما في الأمر أننا نخجل من تحقيقها .

نحن من يركض باتجاه معاكس للروح وللحياة والشمس ..!

كم أحتاج من عمر لأكتبني

لأتسلق حنجرة الليل وأصرخ

لأرسم على النوافذ حكاية زهر عاش وانتظر السقيا، ثمّ مات واقفاً ..

كم أحتاج لأعرف نفسي

قبل أن يفوت السهر

وقبل أن تزورني كل الملامح الغائبة ..!

هذا ما كنت أقوله لنفسي كلما أمسكت بهذا الدفتر الأصفر والقلم الصغير وبدأت أكتب.

في كل صفحة من هذه الرواية أنبش قلبي، أبكي كثيراً وأبتسم وأضحك أيضاً.

لا أعرف إن كنتَ جربت هذا الجنون حينما تعيش كل حالاتك بفصل واحد لا ينتهي.

أوشكت على النهاية كنقطة آخر سطر فارغ لا أعرف ماذا أكتب عندها.

أتنهد وأعود لأكتب نهاية سعيدة! من الصعب أن تتكهن لمستقبلك ولكن أشعر أني بخير.

تصيح المآذن مكبرة لصلاة الفجر، ينتفض صدري كلما سمعتُ صوت الحق وكأنه نداء لروحي يجعلني أغتسل من كل وجع وخيبة وأعود لأحيا من جديد، من الصعب أن أفوت هذه الراحة

أطوي أوراقي وأضعها جانباً .. أنزل على أطراف قدميّ لأبحث عن حذائي القطني لأني أعرف أنه بجانب سرير حنان التي ما تكف عن سرقته كلما نهضت في ساعة متأخرة من الليل ..

سألتها مرة لِمَ تفعلين هذا؟

قالت بنصف ابتسامة وهي تضع قبضة يدها على ذقنها لتقول:

أنا أخاف ..

عرفت أنها تشعر بالأمان

إذا أخذت شيئاً يخصني، وكأنها تطلب مني بكل مرة أن أرافقها ولو بظلي المنفصل عني ..!

يا الله كم هم أنقياء ..

هذا ما يقوله طبيب حنان وما زلت أردده كلما شاهدت تصرفاتها ..

من مثلي يحب رائحة الفجر ويشعر وكأن صفحة بيضاء جديدة تتدلى له من السماء، يكتب كل أمانيه ومشاريعه دون كلام ودون حرف..
يكتبها بعينه وبعقله وبابتسامة ثغره التي تشعرك أن كل شيء سيكون .

علمني العمى أن أستنشق كل الطرق المؤدية إلى الحياة، وأرسم كل أحلامي بألوان وحدي من يختارها ويعجب بها .

علمني كيف أستند على ظهر كل شيء صلب لا يتحرك، وأمشي دون أن أنتظر مرافقته ..
يكفي أني أستدل طريقي وحسب.

تعلمت كيف أن الحياة لا تقف على حد الرضا، وكيف تجعلك تسعى دائماً لتصنع ذاتك وبطريقة مختلفة، الطريقة التي تشعرك بأنك موجود بأية حال من الأحوال .

للصباح بهجة، برائحته العالقة بروحي، لهذا لا أفوت لحظة شروق لأبدأ بالحمد وينتهي يومي بالرضا ..

نحن نسيء لأنفسنا حينما نجعل كل ما يقال عنا حقيقة ونسعى لتصويبه.

محاولة إرضاء الناس غاية لا تدرك

فتوقف عن هذا كله وابدأ الحياة ..

حائط مدرستي ممتلئ بالعبارات التحفيزية و أيضاً اللوحات الإرشادية.

الامتحانات اقتربت والمناهج على وشك أن تصل إلى الورقة الأخيرة.

تقول سارة صديقتي: إنها دائماً تقلب الصفحة الأخيرة لأن ما كتب عليها يشعرها بالإنجاز ..

لم أسألها يوماً ماذا كتبتْ ولم أجرؤ على فعل هذا لأكتشف بنفسي.

دائماً من يسابق الزمن لا يحظى بنهاية عادلة ..

تلك النهاية التي تجعلك فخوراً بما قدمت وأنك تستحق أن تقرأ الورقة الأخيرة .

جميع الطاقم التعليمي يحثنا على بذل المزيد من الجهد، ومعلمة النشاط تحثنا على سرعة تسليم المشاركات؛ لأن المسابقة أوشكت على نهاية الوقت المخصص لها .

أشعر وكأني بداخل زجاجة مشروب غازي، قد عبث بها طفلان وكل منهما يمسك بطرف لتفورَ بوجه من يفوز بها .

الامتحانات و الرواية وأحداث متزاحمة برأسي، وبكلتا الحالتين أخاف لحظة الفوران؛ رغم أنها تشعرني بلحظة التحرر والفرح ..

كان لا بد أن أجمعني قبل أن يتشتت ذهني .

التنظيم للوقت هو المخرج الوحيد، قبل أن تقع بفخ المزاج ويسكنك شبح الفشل .

علّقت بغرفتي لوحتين

الأولى: ترتيب جدولي ما بين الدراسة والرواية ومواعيد حنان

ألغيت أيّة إضافات للترفيه .. من خروج وتنزه ..

اكتفيت بوجه أمي كنزهة، وابتسامة رضا حنان لأشعر أني بخير

أحياناً المتعة الحقيقية تكون مع شخص يعيش بداخلك، بمجرد أن يزور ذاكرتك تشعر وكأنك معه فوق غيمة أو على هيئة مطر يبلل روحك ..

الأجساد لا علاقة لها بالترفيه ..هذا ما أومن به وهذا ما علمني إياه العمى ..!

أما اللوحة الثانية:

فكتبت عليها بخط مستوٍ وغير مائل وبحروف ناصبة بذاتها بكل فخر..

(أنا قبل كل شيء)

أبتسمُ الآن ..

«ليس من الحكمة الوثوق بالعقل وبحواسنا المحدودة فقط لفهم الحياة
هناك أدوات أخرى للإدراك، كالغريزة والخيال والأحلام والعواطف والحدس» .

إيزابيل الليندي

«أنا مشتاقة لإنجاز مهمة كبيرة ونبيلة، ولكن مهمتي الرئيسة إنجاز المهام الصغيرة كما لو كانت كبيرة ونبيلة» .

هيلين كلير

أوشكت على النهاية ..

هل قلت هذه العبارة من قبل؟

أحاول عبثاً أن أنهي هذه الأحداث، ما عدتُ أعرف من أين أبدأ السرد، ولا كيف كيف أنتصف ..؟

تجاوزتُ الكثير .. وسترتُ عورة جرحي بالأحداث المتتالية وتقازمتُ عند كل المواقف التي أخاف سردها، المواقف التي جعلتني أختفي من وجه الحدث وأنساني بإحدى الزوايا .

من هناك ... حيث كنت أراقب والدي ورحيله، واعتيادي على الفراغ الذي تركه في حياتي، واللحظات التي انتظرته فيها وأنا أعدّ له كل الشكاوي من إخوتي: هذا ضربني وهذا سرق قلمي وهذه اعتدتْ على ملابسي وحاجاتي ..

انتظرته كثيراً،،

إلى أن تضخّمت الشكاوى قبل أن يأتي وصارت أكبر، هذا جرحني وهذا أسقطني وهذا ضحك استهزاء بي، وهؤلاء الذين أخفوا أياديهم ولم يمسكوا بي وتركوني للظلام وعمتي التي تحاول عبثاً علاجي بالدواء المر وقبضتها الموجعة لرأسي!

انتظرته إلى حين أن تبدلتْ بالشكاوى حكايات فرح طويلة جدّاً، تبدأ بعودة النور إلى عينيَّ وتنتهي بنجاحي وما أنا عليه.

انتظرته حتى هذه اللحظة، وأتمنى أن يعود ليحظى بسطر أخير بروايتي هذه؛ لأخبر الجميع أن كل الحكايات تنتهي بنهاية سعيدة عندما تتعلق بالأب ..!

أخبروه أني أحبه، وإن تعفّنتُ انتظارًا له

فسأظل أحبه ..

لم أذكر كل شيء ..

فليس كل شيء قابلاً للنشر.

بعض التفاصيل نحتفظ بها على هيئة غيمة داخل ذاكرتنا

إن أمطرت بالذكرى تنهدنا للسقيا، وإن أمسكت لا نرجو بللها!

أصبحتُ أتسع لكل شيء كرصيف تقف به كل الوجوه وتغادره دون أن تترك أثراً سوى رائحة حقائبهم.

الطريق الممتد يشعرنا أنّ النهاية ستتغير قبل أن نصل إليها

وهذا ما كنت أردده دائماً «لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً»

فلا تتعجب حينما تجد أنّ الأحداث متسارعة من حكاية ظلام قصيرة لحكاية نور أطول

فالظلام علمني .. وما كان النور يفعل هذا.

وكل ما أنا عليه بفضل من الله ثم للوعكة التي علمتني أنّ كل شيء له لون ورائحة وحدنا من يحدده، ووحدنا من يشتمه، وأنّ كل الطرق التي نبصر نهايتها لا بد أن نخافها فالطريق القصير رحلة قصيرة لا تحمل من المتعة شيئاً ولا من التجارب.

هذه هي المهام الصغيرة التي أشعر بحجمها يتضخم فوق رأسي وأسعى لأحققها ..

لا أعرف هل وصل لك المعنى الذي أقصده؟!

أيقنت الكثير عندما قررت أن أكون لنفسي، وأتعلم من كل حجرٍ تعثرت به يوماً ولم يكسر ساقي بل بقي الألم وبقيت القدم سليمةً فكيف أشكو وجعاً غير ظاهر للعيان، وحده الطبيب يعي ما أقوله

وكذلك وحده من مرّ بتجربة تعلّم منها هو من سيفهم ما ذكرته سابقاً..

قررت أن أحب نفسي ..

الحب الذي يجعلني أتجاوز كل الحمقى دون تعثّر.

وأرتفع دون أن أسقط.

وأحلق بعيداً دون أن أتعلم الطيران ..

الحب الذي يجعلني أتنفس بطريقة أخرى

وأمسك بيدي وأحلم دون كوابيس

تلك الأحلام التي تأتي بوجوهٍ تفزعنا ..

الحب الذي يجعلني لا أنتظر أحداً

ولا أبكي لغياب من اختار الغياب

وأقف على عتبة الرضا لأجد نفسي من جديد ..

الحب الذي يجعل مني أنثى لا تنسى قوامها

وأمّاً لا تنسى صغارها

وأختاً لا تدس حنانها

وامرأة لا تنسى مهامها

الحب الحقيقي هو ألاّ تنسى ولا تسيء لنفسك ..

«إنني أعثر على قوى جديدة لدي، ربما كانت موجودة دائماً لكنني لم أعرفها؛ لأنني لم أحتج لاستخدامها حتى الآن لا أدري عند أي منعطف في الطريق ضاع مني الشخص الذي كنته»

إيزابيل الليندي

المشي على حد التيه . .
ورسائل معلقة !

لجميلتي حنان

أشعر أنك بخير الآن، إلى الحد الذي يجعلني أحتضنك كلما شعرت بالخوف، التوحد ليس مرضاً فلك روح كالمطر تحتاج من يفهمها ويقدم لها المساعدة دون أي جهد، الروح الطاهرة هي وحدها من تعيش بسلام أبديّ مع نفسها ومع الآخرين ..

أحبك وشكراً لأنك بحياتي دائماً ..

لأختي جواهر ..

تغيّرتِ كثيراً، ما عدتِ الأخت السليطة اللسان الثرثارة

ربما الحياة تهذبنا دون أن نشعر ..

حينما اخترتِ العودة إلى سعيد؛ عرفت

أنّ الحب لا يعرف الكرامة أحياناً

حينما يجعل من القلب سيداً له يطاع ..

كل ما تشعرين به من وجع وغيرة وإهمال سعيد لكِ، كان من اختيارك وهذا ما تحمله لنا القرارات الفاشلة.

ما يزال لديك متسع من الحياة، فكري أن تكوني لنفسك فالعمر نعيشه مرة

وبه نحيا في كل مرة من جديد حينما نقرر هذا

قبلاتي للصغيرة أمنية فكم كان صوتها يهبني راحة وحلماً جميلاً ..

لعمتي زكية ..

أحتاج أن أخبر الجميع أنّ كل قسوة لها حكاية موجعة تظهر على شكل صراخ وضجر وتعود لتغفو، يزعجها أي صوت للفرح ولكنها تزول إذا اغتسلت بروح أحدهم ..

فكنتُ أنا هذه الروح التي أفرغتْ عمتي زكية بها كل ما فعله والدي صالح، وبالمقابل كانت هي الروح التي وهبتني مذياعاً صغيراً بصفقة صداقة مدتها عام لأترك رسائل لي .

شكراً ..إلى كلّ رسالة، أتركها ومن دون غصن ريحان ..

أظن تجاوزتِ رائحته وما عاد يعني لكِ شيئاً، هذا ما أظنه ولا تصححي لي بعنادك هذه المعلومة ..

أبتسم الآن ..

ابنتك ورد

لفهد .

على سطر فارغ أكتب اسمك دون مقدمة

وأختمه بنقطة

النقطة التي تدل على النهاية

لا أفكر أن أبدأ بسطر جديد فلقد كتبتك تسع سنوات دون نقطة تفصلني عنك، ليأتي القدر ويضعها شهقة ودمعاً وحكاية لا تحتمل جزءاً آخر ..

مبارك ابنتك البكر، هذا آخر ما عرفته عنك لأتيقن أن حياتك على ما يرام

شكراً لأنك علمتني أنّ الأحلام تبقى أجمل لو بقيت كما هي أحلاماً

شكراً للحظة التي جعلتني ألوذ فيها بحزني وخيبتي لله

وألهمتني بدعاء أردده بكل سجود:

(اللهم لا تعلق قلبي بما ليس لي، واجعل لي فيما أحب نصيباً)

أنا هي .. الأنثى التي كانت تقف أمامك مباشرة بنصف عين تبصرك وتبكي ..

لمعلمتي حسناء ..

لروحك التي تحلّق في الفردوس إن شاء الله، لن أنسى أنك سبب كل شيء جميل يحدث لي، وكل شيء يحدث لسبب، فكم مرة جعلتني أعيد موضوع التعبير لأنك تظنين أني يوماً سأكون أديبة

ربما سيخيب ظنك ولكني أحاول الآن .

كتبت بصدق ولم أغمض عينيّ كما كنت تطلبين مني لأتخيل الحدث

لقد كتبت ورد بصورة مبسّطة بحكاية تنتهي بوردة وحمْد ..

فهل سيشعرون بي ..

دعواتي لكِ حبل أبدي أوصله للسماء ..فيا رب يجمعني بك في جنات النعيم .آمين ..

الرسالة الأخيرة

إليك أمي ..

الأمومة أمر مكلِّف يستنزف كل قطرة بجسدك

كنت معك هناك وبداخلك أشعر بكل الوجع الذي سببته لك وفي كل مراحلي العمرية ..

وأشعر أيضاً بالغربة حين تنسين وجهي في زحمة وجوه إخوتي

كان جلّ المنى كفيْك ورائحتهما، حضنك وذراعيك

ماذا لو تلقفتني برعاية أكثر حين سقطت كثيراً وحين توجعت

سامحيني أمي، لأني أكتب لك من ثقب بقلبي

وأظل أحبك لأنك حياة ..

فيا رب امسح عن قلبها كل هم

اللهم آمين

آمين .. آمين أرددها وأنا ممسكة بكتاب مادة اللغة العربية

انتهى الدرس ومعه المنهج كاملاً

لأقلب آخر صفحة

وأجد عبارة

(تم بحمد الله)

العبارة التي كانت تشعر سارة بالراحة ولم يدفعني فضولي لاستكشافها

الآن فقط أشعر بلذتها وأعيش تفاصيلها

والآن يحق لي أن أختم بها روايتي

بعد أن أكملتها، ولم تكتمل حكاياتي بعد.

فلقد انتهيت من المرحلة الثانوية وبتقدير جيد جدّاً

وأجهز نفسي للمرحلة الجامعية ..

أظن أنها تليق بي أخيراً

ولدي مشاريع صغيرة أود أن أنجزها كحلم كبير يدفعني لأرتقي.
بذاتي وأدعم فكري وطموحي
سأسلّم هذه الرواية غداً إلى معلمتي ابتسام
لا أعرف ماذا أختار لها عنواناً، احترت كثيراً ولكن هذه اللوحة المعلقة فوق رأسي تناسبني كثيراً

(أنا قبل كل شيء)

كل منا يتمنى الفوز وبمراكز متقدمة

وكم سعيت لهذا

لكن أتمنى من يقرأ هذه الرواية

ويجد أنها تستحق أن تصل إلى كلّ روح تعثرت ونهضت دون مساعدة أحد

وحدها ذاته من كانت خلف كل نجاح، وأظن أنَّ القرارات الصائبة

هي من تفعل هذا ..

أتمنى حقاً أن تنشر هذه الرواية وتحت هذا المسمى

ومن يتعلم منها شيئاً يرسل لي رسالة قصيرة

Ward_saleh@hotmail.com

ليجعلني أتنفس وبطريقة مختلفة ..

كتبت بقلم

ورد

تم بحمد الله

شكر وامتنان للمعلّمة:

ابتسام الرشيد على التدقيق النحوي والإملائي

@ebtisamalrashe2


لم أعدْ تمثالاً خشبيا
أنا أبصرالآن..
joalremal jo_alremal jo_alremal
9 786038 203668
adabarabic7
services_book
services_book
www.daapd.com
ADAB
BOOK